التوران

عنوان الكتاب: التـــــــــــــــــــــوران
الموضـــــــوع: روايـــــــــــــــــــــة
التـأليـــــــف: عصـــــــــام أمـــــــــين
مراجعة لغوية: مجـــــــــدي محـــــــــروس
الإخـراج الفنـيّ: عمـــــرو ســـــالم ســـــواح
غـــــــــلاف: فـــــــارس إيهـــــــاب
رقـم الإيـداع: ١٥٣٢ /٢٠١٩
الترقيم الدولي: ٦-١٨٦-٨٣٥-٩٧٧-٩٧٨

الناشر: زحمة كتاب بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع

Facebook Page: اسكرايب للنشر والتوزيع

Email:scribe20199@gmail.com

Tel: 00201005079256

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار
اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

الأراضين السبع

التـــوران

روايـــــــة

بقلم/ عصام أمين

إلى معاتيه العالمِ الضيقِ رغم سعتِه ..

إلى كلِّ مَنْ طلبَ قراءةَ رواية بطريقة ال pdf رغم عدم نشرِها بعد..

إلى كلِّ مَنْ كانت فكرته عن الأدبِ والثقافةِ احتساء فنجانِ قهوةٍ

مختلطاً برائحةِ التبغِ العفنةِ التي ندمنُها جميعاً..

وأخيراً إلى مَنْ أُدينُ لهم بالفضلِ، أساتذتي:

- دكتور نبيل فاروق ..

- خالد الذكر دكتور أحمد خالد توفيق رحمة الله عليه ..

- الصديق الراقي أستاذنا مجدي محروس ..

- دكتور رامي عبد الباقي كل التحية .

عصام أمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ١٢]

وقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ * وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود: ٦]

وقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨]

ليس كلُّ عالمٍ جديدٍ جميلاً

نحن لا نحيا وحدنا في هذا العالمِ

رغم ما يحمله الإنسان في أعماقه من خوفٍ إلا أنه دائم البحث عن المجهول

عصام أمين

لا تقرأ هذه الرواية إذا كنتَ لا تبحثُ عن عوالمَ جديدةٍ
وحياة أخرى تزخرُ بالغموضِ والرعبِ والخيالِ
أما إذا كنتَ من هواةِ ارتيادِ العوالمِ الجديدةِ فأهلاً بكَ
في عالمنا الذي لا نعرفه

عصام أمين

القِسْمُ الأولُ

عَالَمُ الغُموضِ

١ ـ الفـارس

كانت جنة تبدو للناظرين على مدِّ البصر، ولم يكن أي إنسان عاقل يصدق وجود مثل هذه الواحة الغنَّاء في قلب صحراء قاحلة جرداء يخشى الإنسان مجرد السير تحت وطأة شمسها حامية الوطيس في مثل هذا الوقت من النهار .. ووسط هذه الواحة أو كما كانوا يطلقون عليها جنة الله في الأرض كانت هناك خيمة رُصِّع قماشُها بالذهب الذي كان يعكس أشعة الشمس ليغشي الأبصار وقد شُدَّت أوتادُها في قوة إلى الأرض حتى لا تُطيرها الرياح، وأمام الخيمة كانت تجلس فوق العشب تتوسد الأرض تضحك في دلالٍ، وقد بدت أسنانها كصفين من اللؤلؤ، وقد داعب النسيم خصلات شعرها الناعمة والتي بدت للناظرين كسبائك الذهب وهي تتدلى على وجهها ناصع البياض والمشرب بالحمرة وقد توردت وجنتاها وزادتها زرقةُ عينيها جمالا وغموضا .. كانت تبدو كأميرات القرون الأولي، وقد تدلى من أذنيها قرطان كبيران من الماس، وزيَّن عقد ذهبي كبير جيدها، كان يتوسطه جعران كبير صُنع من العقيق أهداه لها والدها الذي وجده في إحدى رحلاته، ومن يومها والعقد لا يفارق جيدها أبداً ..

بينما لمعت الأساور الذهبية التي كانت تُصدر رنينا موسيقيا عند حركة ساعديها.

كانت فاتنة شديدة الجمال، وقد أحاطت بها الوصيفات من كل جانب وهن يتبادلن النِكات والضحكات، ورغم أن البسمة لم تكن تفارق وجهها أبدا إلا أنها كانت تُخفي خلفها حزنا دفينا يطلُّ من عينيها الجميلتين التي كانت تخلبُ لب مَن يراها حتى أن الناظر لهما يتوهم أنه سقط في بحرٍ متلاطم الأمواج بلا قرار ..

كما كانت تهوى العزلة والبقاء وحدها أوقاتا طويلة ..

كان هناك شيء غامض في حياتها يدفعها للتأمل الدائم، والنظر إلى ما حولها في شرود، وكانت هذه اللحظة من اللحظات القلائل والتي كانت تشارك فيها وصيفاتها اللاتي كن يلهون في براءة وقد امتدت أيديهن إلى طبقٍ كان يتوسط المكان امتلأ بأنواع شتى من الفاكهة الطازجة رحن يأكلن منها في نهمٍ، ومن حولهن بدا المكان أشبه بسكنة عسكرية منيعة وقد أحاط به عشرةٌ من الفرسان البواسل، وقد تدلت من أحزمتهم سيوف ضخمة، وقد اتخذ كل فارس منهم وضع الاستعداد متأهبا للقتال وصد أي هجوم ..

كانوا جميعا يعملون على حراستها؛ فقد كانت جميلة ابنة سيد القوم والذي كان يؤثرها على نفسه؛ فهي ابنته الوحيدة التي أنجبها من زوجته أميرة ابنة سيد قبيلة الناج، والتي تزوجها بعد قصة حبٍّ استمرت لأعوام، وذاع صيت قصة العشق هذه بين القبيلتين لتصبح مضرب الأمثال في العشق ويتحاكى بها العاشقين .. وعاش معها حياةً سعيدة لم ينغصها شيء، حتى جفاف المياه لدى قبيلة زوجته، والذي اضطرهم للقدوم للمعيش معهم يشاطرونهم المأكل والمشرب والمكان وقد توحَّدت القبيلتان تحت رايته يأتمرون بأمره ..

فقد كان سلام فارسا مغوارا ..

كان صنديدا لا يعرف الخوف إليه طريقا؛ فقد ورث الزعامة عن أبيه غالب ..

لكنه رغم شجاعته وقوة جيشه الذي كوَّنه فور توليه زمام الأمور بعد والده الذي وافته المنية كان له قانونه الخاص ..

فهو لا يبادر أي قبيلة بالعداء ..

كما كان لا يغير على قوافل التجارة التي كانت تسلك الطريق المار بأرض قبيلته في رحلاتها .. كان لا يعادي إلا مَن بدأ بالعداء، ولا يقاتل إلا دفاعا عن قبيلته وأهله وعرضه صداً لهجمات الأعداء والطامعين ..

كما كان كريما يقري الضيف، ويحسن استقبال السائلين، ويُجزل لهم في العطاء

لقد كان فارسا بكل ما تحمله الكلمة من معان ..

كان الصيد والقنص هوايته الأثيرة التي ورثها عن جده عدي، والذي كان يشبهه تماما على حد قول والده وأهل قبيلته الذين عاصروه ..

فسلام له نفس ملامحه وهيئته، كما قال له والده أنه ورث ولعه بالصيد منه، ولقد كان سلام يعلم أن جده قد قضى نحبه في إحدى رحلات الصيد ..

لقد كانت قصة اختفائه العجيب والمفاجئ أمرا تناقله أفراد القبيلة جيلا بعد جيل

فهو ما زال يذكر القصة كاملة كما وصلته من والده الذي ورثها عن والده

فقد قصَّها عليه والده مرارا وتكرارا، ولكن عقله أبى أن يصدقها؛ فقد كان جده فارسا لا يُشق له غبار، كما كان دائم التنقل والترحال، وفي إحدى رحلات الصيد وبينما جده ورفاقه يلهون ويمرحون وهم يلتهمون اللحم المشوي من الفرائس التي استطاعوا صيدها نزلت صاعقة من السماء فوق رأس جده ثم تلاشت ليختفي بعدها جده إلى الأبد ..

كما أنه لا ينسى ما ردده الناس عن اختفاء جده ساعتها ..

فقد أكد مرافقوه أن هذه الأرض كانت المكان الذي يلتقي فيه السحرة لممارسة طقوسهم

انتفض جسد سلام، وعقله يتذكر ما قيل وقتها من أن الشيطان غضب على مجموعة من السحرة، وعندما أراد معاقبتهم بعد أن حلَّ عليهم غضبه فترة كبيرة

ولما شعر السحرة بالتعب وباللعنة تلاحقهم أخذوا يتوسلون إليه، ويقدمون القرابين والذبائح، وقد أدركوا أن نزول الصاعقة على جده كان علامة على قبول الشيطان لقرابينهم ورضاه عنهم،

ومن لحظة اختفائه لم يعد، ولم يعثر أحد على أثر له، وعندما كان سلام يتأمل في تصرفاته ويقارنها بما كان يسمعه عن جده كان يجد نفسه يشبهه بالفعل؛ فقد كان يصطحب رفيقة دربه في كل رحلات الصيد التي كان يقوم بها

كما كان يجد متعته عندما ينجح في اصطياد وعل بري أو غزال شاردٍ ساقه سوء الحظ إلى طريقه؛ فقد كان راميا بارعا يجيد الصيد

كان هانئ البال يحيا في سعادة ولما لا ؟! وهو يحظى بحب أفراد قبيلته

لكنه لا ينسى هذا اليوم أبدا؛ فقد ظلَّ محفورا في ذاكرته ..

يوم كان في رحلة صيد في مكان اكتشفه رجاله حديثا

كانت أرضا بكرا لا يفصلها عنهم إلا أميال قليلة

امتلأت بالعشب والمياه التي كانت تترقرق منسابة في جدولٍ طويل ينتهي إلى بئرٍ عميق لا يبدو له قرار ..

كما كانت الحيوانات البرية تتخذ من المكان مسكنا لها

وما أن وصله الخبر حتى قدم إلى المكان على الفور في رحلة صيد

وكعادته اصطحب زوجته وابنته التي كانت في عامها السادس

وهناك ضُربت الخيام، وأشعلت النيران، وصعدت رائحة الشواء الشهية إلى الأنوف

فقد كان الخير وفيراً، وكان ما اصطاده الرجال من غزلان كثير، وافترش الجميع العشب وهم ينظرون إلى المكان في إمعان، فقد كان المكان ساحرا بكل ما في الكلمة من معان ..

لوحة طبيعية من صنع الخالق تعجز أنامل أبرع الفنانين عن رسم مثلها ..

كانت صفحة المياه التي تعكس أشعة الشمس مع الأشجار اليانعة والأزهار تبعث في النفس شعورا بالراحة والاسترخاء ..

مع نسمات الهواء الباردة التي كانت تداعب وجوههم، وتحرك ملابسهم في نعومة تجعلهم يتمنون عدم مغادرة المكان والعودة إلى وطنهم ..

فقد كانت الشمس حامية الوطيس تُلهب أشعتها ظهورهم، وتحرق وجوههم فتصبغها باللون الأسود حتى أنه بات من المستحيل أن تعرف لون البشرة الحقيقي لأي منهم

لكنه الوطن والانتماء إليه حتى إن بعضهم كان يتندر على كلمة الانتماء والحنين إلى الوطن، وهل لمثلهم وطن ثابت؟

فهم دائمو الترحال بحثا عن مصدر المياه التي كانوا أينما وجدوها أقاموا واتخذوا المكان وطنا لهم.

غريبة هي حياتهم، عجيب أمرهم، كيف استطاعوا أن يعيشوا مثل هذه الحياة المتعبة

بل كيف كانوا يستمتعون بحياتهم، لكنهم كانوا يجيدون ذلك فقد اعتادوا عليه، حتى أن سلام وزوجته وابنته تناولوا طعامهم في نهم وشهية لم يعهدها أحدهم في نفسه من قبل، وقامت الصغيرة لتجلس على حافة الجدول تداعب المياه، وهي تنظر لترى وجهها في مياهه الشفافة الرقراقة ..

وكأي طفلة في الكون ومهما اختلفت البيئة التي ولدت فيها وجدت نفسها تلهو مبهورةً بما حولها من مناظر جميلة، وهي تطارد العصافير التي كانت تدنو من المياه محاولةً الشرب فتطير وقد أثارت الصغيرة فزعها، كانت تغرف المياه بيدها من الجدول مازجة إياها بالرمال لتصنع منها أشكالا غريبة محاولة محاكاة ما حولها، وتارة أخري تقطف وردة تُزين بها رأسها بعد أن تضعها بين خصلات شعرها الناعمة، وتجري مطاردةً أرنبا برياً سرعان ما يختفي عن ناظريها فتعود إلى حيث كانت، ثم تنهض وهي تعدو نحو والدتها التي تضمها إليها مهدئة من روعها فور رؤيتها لأحد الجرزان، ثم ما تلبث أن تنسى أمره فتعود للجلوس بجوار المياه ثانية ..

كما كان يحلو لها مشاهدة فرسان قبيلتها وهم يتبارزون ويتبارون في السباق بخيولهم ..

كانت تشعر بسعادةٍ بالغة ..

وأطرقت جميلة رأسها تتأمل الرمال، بينما جلس سلام وقد احتضنت كفه كف زوجته، وراح يبثُها كلمات العشق والهيام، وهي تنظر إلى الأرض في حياء وخجل خضَّب وجهها بالحمرة، وهي تقول: - تحشَّم يا سلام؛ لسنا بمخدعنا الخاص، فالقوم من حولنا.

قال سلام: مالي ومال القوم، أنا مستعد لأن أقف الآن لأقول للجميع أنني متيمٌ بحبكِ، أسير هواكِ.

قالت وهي تضحك في دلال: أنت كما أنت لن تتغير.

همَّ سلام بالحديث لولا أن رآها تقطبُ وجهها، وقد أطلت من عينيها نظرة جزع، وهي تشير لشيء ما خلفه فاستدار ملتفتاً للخلف في سرعةٍ، وقد هاله ما رأى، فعلى مقربة منهم كانت الجياد تنهبُ الأرض نحوهم، وقد حملت على ظهورها عشرين فارساً ضِخام الجثة أقوياء الشكيمة، وقد استلوا سيوفهم وهم يرفعونها عالياً ملوحين بها، وقد لمعت صفحاتُها تحت أشعة الشمس ..

لم ينتظر، وإنما لحق برجاله وامتطى صهوة جواده الأدهم في سرعةٍ ورشاقةٍ نمت عن فارسٍ مغوار بهي الطلعة، وقد كان آخر ما سمعه صوت زوجته وهي تقول:

- الصغيرة يا سلام، جميلة ابنتنا يا سلام .

اتجه بعدها على الفور إلى حيثُ تجلس صغيرته التي أصابها الفزع فور رؤيتها للفرسان الغرباء فطفقت تبكي، وهي لا تدري ماذا تفعل، لكنه انحنى في حركة رشيقةٍ وهو يمد يده نحوها ليجذبها في خفة، وهو يضعها خلف ظهره وهو يقول:

- تمسَّكي بي جيدا يا صغيرتي . قالها وهو ينطلق مبتعدا، فلحق به أحد رجاله وهو يقول:

- يا سيدي .. قاطعه سلام قائلا، وهو يمد يده خلف ظهره ممسكا بجميلة:

- حسان، اعمل على رعايتها، واسلك طريق العودة ومعك كل النساء .

قال حسان: كيف يا سيدي تطلب مني تركك تقاتل وحدك وأنا كبير الفرسان و..

قاطعه سلام صائحا: نفذْ ما تؤمر يا رجل .

قال حسان: يا سيدي لا أستطيع تركك وحدك، لن أتخلى عنك فليقم أي واحدٍ من الفرسان بذلك.

صاح سلام في لهجةٍ حاسمة: أنا لا أثق في أحد سواك يا حسان، هيا يا رجل لم يعد أمامنا المزيد من الوقت لنضيعه .

التقط الرجل جميلة على الفور، ووضعها أمامه على صهوة جواده، وهو يتجه نحو خيم النساء في سرعة، ووقف بجواده أمام أميرة زوجة سلام وهو يقول:

- هيا يا سيدتي، سنسلك طريق العودة للديار؛ فقد طلب سيدي ذلك .

قالت أميرة في غضب، وهي تنظر إلى صغيرتها التي كانت تصرخ في خوف، وهي تشب بجسدها الصغير نحوها: ويحك يا رجل، هل فقدت عقلك؟أتطلب مني التخلي عن زوجي في وقت الشدة .

قال وهو يتلعثم: لقد طلب سيدي اصطحابك وباقي النسوة وجميلة حتى يقاتل وقلبه مطمئن عليكم .

قالت إحدى الوصيفات: لن نبرح المكان دون سيدنا .

أومأت باقي الوصيفات برؤوسهن مؤيدات لعبارة زميلتهم ..

كان يلوم نفسه فحتى النسوة أبين مغادرة مكان المعركة، أعجز أن يكون مثلهم؟ لماذا لم يكلف سيده أحدا غيره بهذه المهمة؟ لماذا اختاره هو وهو كبير الفرسان؟ كان من الممكن لأي فارس غيره القيام بهذه المهمة في يسرٍ وسهولة، كان كفارس مغوار خاض الكثير من المعارك بجوار سيده وألف القتال يجد في تركه لميدان المعركة عاراً سيلحق به، لكنه القدر، فمثله لا يقوى على مخالفة أوامر سيده ..

- حسان . أعاده صوت سيدته، وهي تناديه باسمه إلى واقعه، فأكملت قائلة بعد أن التفت إليها: أسرع يا رجل بالعودة إلى الديار؛ حتى تُحضر المدد الكافي من الفرسان؛ لتدرك سيدك .

كانت صرخات الصغيرة المتصلة تقطع نياط قلبها، لكنها قالت وهي تشيح بوجهها بعيداً:

- الصغيرة يا حسان .

لوي حسان عنق جواده في قوة، الذي راح ينهب الأرض سالكا طريق الديار، وصوت سيدته يدوي في أذنه : احرص عليها كحرصك على حياتك .

لم يلمح دمعة ساخنة نزلت على وجنتيها، بعد أن سيطر عليها شعور غريب بأن هذه آخر مرة ترى فيها صغيرتها .

في نفس اللحظة التي قفل فيها سلام عائداً لمواجهة خصومه، وعينه تدور في المكان في سرعة ودقة، وهو يرى فرسانه وقد اشتبكوا معهم في قتالٍ عنيف، كان يدرس المكان جيداً، ويبحث بعقله عن مخرج لما هم فيه، فقد أدرك أن القتال المباشر سيكون له نتيجة واحدة ..

تنهَّد في حرقة وهو ينفض عن عقله كل هذه الأفكار، وهو يتقدم لمقاتلة قطاع الطرق ..

انضم إلى رجاله في سرعةٍ، وقد جندل سيفه اثنين من المعتدين، وحمي وطيس المعركة، وكل قائد عرف فنون القتال منذُ نعومة أظافره انطلق سلام بجواده، وأخذ يصول ويجول في خفةٍ ومرونة ويراوغ، وهو يتفادى طعناتهم وضربات سيوفهم، ونصل سيفه يغوص في قلب أحدهم حتى غمده فيخرجه يقطر بالدماء كما كان الجواد الذي يمتطيه سريع الحركة رشيق فقد كان يكر ويفر في الوقت المناسب وكما أراد سيده، وكان فرسان سلام لا يقلون شجاعةً وكفاءةً عنه فانطلقوا يقاتلون في براعةٍ وقوة، كان قتالا متكافئا إلى حد كبير، فقد كان سلام لا يُنكر قوة وحنكة قطاع الطرق الذين يواجههم؛ فقد كانوا أقوياء الشكيمة بارعين في النزال والطعان حتى أن خمسة من فرسانه الذين كانوا مضرب المثل في الشجاعة والقوة والبراعة لقوا حتفهم، وهو ما أثار غضبه ودفع الدم ليغلي في عروقه، فاندفع يقاتل كليثٍ جريح يريد الثأر لرجاله، لكن كان ما يشغل باله زوجته وباقي النساء، فقد تأكد من مغادرة حسان للمكان مصطحبا معه ابنته فقط

فقد كانت لا تعنيه حياته؛ فهو فارس لا يخشى الموت، لكنه كان يخشى أن تسبي زوجته ونسوة القبيلة اللاتي اصطحبهن معه فيُعيَّر في القبائل فلا يستطيع أن يرفع هامته وسطهم أبد الدهر فصاح: حسن .. أمير احموا النساء .

فانطلق الاثنان في سرعة نحو خيم النساء اللاتي قبعن داخل إحدى الخيام، وقد بدا الفزع والذعر واضحا جليا على وجوههن وهن يصرخن في رعبٍ بينما اشتبك سلام في قتال عنيفٍ مع قائد قطاع الطرق، والذي كان يتميز بجسدٍ ضخم، وعضلات مفتولة، وبشرة سوداء جعلته أشبه بالزنوج كما كان يملك ساعدا قويا فأخذ يهوي بالضربات قاصداً رأس سلام الذي كان يتلقى الضربات في صعوبةٍ، وقد شعر بالخدر يسري في كتفه، وبأن يده تكاد تعجز عن صد الضربات، وهو ما جعله يدرك مدى قوة خصمه، ويقر داخله أن المواجهة المباشرة لن تنتهي لصالحه أبدا ..

- لابد من الحيلة والخديعة .

قالها متراجعاً بجواده للخلف، وهو يلوي لجامه لينطلق به بعيداً، وزعيم قطاع الطرق يلاحقه في إصرار جعل زوجته تشهق في رعبٍ فور رؤيتها لهذا المشهد، وهي تقول للفارسين اللذين وقفا لحمايتها والذود عنها: أدركا سيدكم .

لكن أحداً منهم لم يتحرك من مكانه قيد أنملة؛ فقد كانوا ينفذون تعليماته، وقد وقفا متأهبين لصد أي هجوم، ومن بعيدٍ لاح لهم سلام الذي نزل عن صهوة جواده الذي انطلق مبتعداً في خفة ورشاقة، وقد اختفى سلام خلف البئر الذي كان يرتفع عن الأرض متراً كاملا، وقائد

الأعداء يدور حول المكان بحثا عنه، وقبل أن يلمحه فوجئ بنفسه وقد اختل توازنه فسقط من فوق جواده، وقبل أن ينهض في سرعة وقد أطلَّ الغضب من عينيه بعد إدراكه لخدعة سلام لكن بعد فوات الأوان؛ فقد انتهز الأخير انشغاله بالبحث عنه، فقام بضرب السرج وهو ما أفقده توازنه ودفعه للسقوط عن صهوة جواده، والتحم الاثنان في قتالٍ عنيفٍ، وقد علا صليل السيوف وملأ الغُبار المكان من حولهما، وانحنى سلام في مرونة متفاديا ضربةً قوية وجهها له غريمه لو أصابته لشجَّت رأسه إلى نصفين، ثم غاص بسيفه في قلبه حتى غمده، وجحظت عينا زعيم قطاع الطرق بعد أن اصطبغت بلون الدم قبل أن يسقط جثة هامدة ..

هنا تنفس سلام الصعداء، وقد رأى جواده يقف بجواره، فقفز ممتطيا ظهره في خفة، وهو ينطلق به إلى أرض المعركة ..

كانت الخسائر فادحة فقد تبقي من فرسانه خمسةٌ بينما لقي عشرة حتفهم، وبقي من قطاع الطرق ثمانية اشتبك أربعة منهم مع فرسانه الثلاثة، وانطلق الأربعة الباقون ليشتبكوا مع الفارسين الذين كانا يذودان عن النساء اللاتي علا صوتهن بالصراخ والعويل، ودون تفكير انطلق بجواده لينضم إلى الفارسين وهو يقاتل في براعة، لكن موت زعيم قطاع الطرق على يديه زاد من قوة أعوانه فراحوا يقاتلون في شراسة وقسوة ..

كان رجلاه يقاتلان في بسالة، وسقط أحدهما بعد أن تلقى صدره طعنة بارزة، فسالت الدماء في غزارة، واستطاع سيف سلام حصد رأس أحدهم ليطير بعيداً، وقد انطلقت نافورة من الدماء لطخت ثيابه ووجهه، فمسح الدماء بيده بينما هوى بضربة قوية بيده الأخرى على رأس أحدهم ليشجها نصفين، وقبل أن يشتبك مع الثالث وجد زوجته تندفعُ نحوه قائلة في فزع: سلام احترس.

فاستدار على الفور ليرى فارسين، وقد اندفع أحدهما نحوه هاما بطعنه في ظهره، لكنه جذب لجام جواده ليتنحى جانبا، ومر الفارس بجواره فهوى بسيفه على السرج في قوة، ودون انتظار قام بدفع قدمه نحو الفارس الذي اختل توازنه فسقط أرضا في عنف وهو يطلق سباباً بذيئا، وقبل أن يلتحم سلام معه في القتال وجد أحدهم يهوي بسيفه نحوه فانحني للخلف في مرونة، وقد مرق السيف بجوار أذنه، وكاد توازن غريمه أن يختل بعد أن أخطأت ضربته عنق سلام الذي لم يضع وقتاً فهوى بسيفه فوق ذراع غريمه الذي طار بعيدا قبل أن يسقط أرضا، وقد تفجرت الدماء من موضعه، وصاحبه يصرخ في ألم شديد، وهو يسقط من على ظهر جواده،

وأدرك سلام أنه صار وحيداً في مواجهة اثنين من الفرسان، فاشتبك مع أحدهم وهو يتفادى ضربة قوية وجهها له الفارس الثاني الذي اندفع نحو زوجة سلام، وهو يجذبها من شعرها في عنف، وقد رفعها بيدٍ واحدة ليضعها أمامه على ظهر جواده، وقد أحاط عنقها بنصل السيف الحاد، وهو يضحك بصوت مرتفع جعله يبدو كشخص أصابه مس من الجنون، وهو يقول وسط صراخ النساء: قُضي الأمر يا صاح، حياتك أو حياتها.

*****

كان كبير الفرسان حسان يمسك بجميلة جيداً، وجواده ينهب الأرض في سرعةٍ وصرخات الصغيرة لا تنقطع، كان يشفق عليها مما رأت؛ فما رأته أصابها بالرعب والهلع، كان يتلفت حوله في كل اتجاه خشية أن يكون أحدهم قد تعقبه، كانت لا تعنيه حياته لكنه كان يود أن يصل بجميلة ابنة سيده المحبوب في سلام، وصدره يختلج بمشاعر شتى؛ فقد كان يتمني ألا يغادر مكان المعركة، كان يود القتال بجوار رفاقه تحت لواء سيده حتى يتحقق لهم النصر أو يلقى حتفه في عزة وإباء لا أن يفرَّ كالجرذان، لكنه لم يعتد إلا الطاعة العمياء لسيده، فانطلق ينفذ أمره على الفور، كان يشعر بغصة في حلقه؛ فحتي أوامر سيده لم ينفذها، فقد انطلق بالطفلة وحدها تاركاً سيدته وبقية النسوة بين براثن العدو يواجهن الخطر وهن ينتظرن نتيجة القتال ليتحدد مصيرهن، كان يلقي باللوم على نفسه، لكن ما الذي كان بيديه ليفعله، فقد كان يعرف مدى عناد سيدته التي رفضت مغادرة المكان وأبت أن تترك زوجها يواجه الخطر وحده

حتى أنه حاول إقناعها بمرافقته إلى ديار القبيلة لكنها رفضت، كم كانت عنيدة ..

كان لا ينسى صوتها الذي لا زال يدوي في أذنيه، وهي تنهره وتطلب منه الذهاب بصغيرتها جميلة، كما كان لا ينسى وصيتها له بالحرص على حياة الصغيرة فلم يجد أمامه سبيلا سوى ما فعل، لقد كان عدد العدو كبيراً، وقد أدرك بخبرته مدى قوتهم وحنكتهم، وهو ما جعله يوقن أن المعركة ستنتهي في غير صالح سيده؛ لذا فقد انطلق على الفور متجها صوب قبيلته لعله يصل في الوقت المناسب حتى يعاود الكرة ومعه المدد الكافي..

ومن بعيد لاحت الديار ..

ديار قبيلته ..

وبدأت المسافة تضيق ..

وبدت الديار تتضح أكثر ودقات قلبه تزداد اضطرابا، وما هي إلا دقائق معدودة حتى وجد نفسه وسط ديار القبيلة التي التف رجالها ونسائُها حوله، وقد اندفعت إحدى النسوة لتتلقف جميلة منه وقد ضمتها إلى صدرها، وهي تربت على ظهرها في حنان قائلة : اهدئي يا صغيرتي .

لكن بكاء الصغيرة ونحيبها لم ينقطع، واندفع أحد الرجال نحوه قائلا في فزع: ما الخطب يا سيد حسان؟

قال بعد أن التقط أنفاسه: السيد سلام في خطر، لا وقت لنضيعه، هيا لندركه .

قالها وهو ينطلق بجواده نحو مكان المعركة، وقد انطلق خلفه عشرات الفرسان من قبيلته، وقد أصابتهم كلماته بالفزع والقلق على سيدهم .

*****

نشأ سلام في الصحراء، وترعرع في ربوعها، ألف شمسها الحارقة وبردها القارص، عشق رمالها وكثبانها، حفظ دروبها، حتى أنه ألف أخطارها فقد كانت حياتهم في الصحراء محفوفة بالمخاطر، فقد كانت مرتعاً للزواحف السامة والحيوانات المفترسة والتي كانت تهاجمهم بين الفينة والأخرى، كما لم يكن جديدا عليهم مهاجمة قطاع الطرق لهم، بل كان الخطر الأكبر الذي كان يواجههم هو جفاف الآبار ونضوب الماء، فقد كان يعني هذا لهم الرحيل عن وطنهم والبحث عن وطنٍ بديل، كان يعني أن يحيوا طوال حياتهم غرباء لا يعرفون الاستقرار في مكان بعينه، وأصعب شيء على الإنسان أن يحيا بلا وطن، يحيا شريداً تائهاً يتنقل من مكان إلى مكان، دائم السفر والترحال، وككل أقرانه تعلَّم الفروسية منذ نعومة أظافره؛ فلقد فرضت عليه البيئة التي يحيا فيها ذلك، فكان لزاما على الكبار تعليم الصغار كل فنون القتال والنزال؛ فلقد كانوا يعيشون في بيئة تحكمها شريعة الغاب، البقاء فيها للأقوى؛ فكل قبيلة كانت تجد في نفسها القوة كانت تُغير على القبائل المجاورة غير مباليةٍ بكم من النسوة ترملن، ولا بعدد الأطفال الذين تيتموا، ولا كم الدماء التي سالت، لكن كان الهم الأكبر تحقيق نشوة زائفة، وإشباع رغبات سادية ونزعات عدوانية، حتى أن المتأمل لحياتهم لا يستطيع أن يفرّق بينهم وبين الحيوانات المجاورة التي كانت تشاركهم الحياة، فقد تميز كلاهما بالقسوة والوحشية، فتجردت قلوبهم من المشاعر، واكتست ملامحهم بالقسوة، وتشربت قلوبهم بالغلظة والجفاء، لكنه كان يختلف عنهم؛ فقد كان فارسا لا يزال يذكر عادات قبيلته، ويحرص على تطبيقها حرصه على حياته، فلا زالت كلمات والده تدوي في أذنه ..

لا تفزع شيخا ..

لا تقتل أعزلا ..

لا تضرب امرأة أو طفلا ..

كانت قوانين صارمة لا يستطيع أحد من أفراد قبيلته مخالفتها، وها هو في مواجهة أحد الأنذال الذي استغل انشغاله بالقتال فاندفع لجذب زوجة سلام في قسوة من شعرها وهو يضعها أمامه فوق ظهر الجواد واضعاً السيف فوق عنقها؛ بعد أن أدرك أنها زوجة سلام فقد اندفعت لتحذره

وقبل أن يحرِّك ساكنا رأى أغرب شيء يمكن لإنسان في تلك الحقبة الزمنية السحيقة أن يراه،

كانت كرة من النور بدت وكأنها نبتت من العدم فأغشي ضوؤها بصره لثوان معدودة حتى أنه كان يظنها شمساً صغيرة سقطت من عنان السماء، وجاءت لتتخذ الأرض لها مسكنا ..

أغلق سلام عينيه في قوة وهو يرفع سيفه عاليا أمامه في اتجاه كرة النور التي ظهرت فجأة ثم عاود فتح عينيه مرة أخرى ظنا منه أنه يحلم أو أنه يعيش كابوساً مخيفا وهو يقظ، ورأى سلام الشمس الصغيرة وهو لا يدري لماذا سيطر عليه شعور غريب فور رؤيتها أنها كائن ينبض، كما شعر داخله أنها كانت تريده هو، لكنها عدلت من وجهتها عندما رفع سيفه لأعلى لتحيط بجسد زوجته والنصف الأمامي من الجواد ويد الفارس التي كانت تطوق عنقها، وصرخ الفارس الآخر من الرعب وهو يعدو بجواده مبتعداً، بعد أن فقد سيفه الذي سقط من يده: اللعنة لقد عادت من جديد، سيعم المكان الخراب والدمار .

وصرخ الفارس الآخر في رعب، وجسده ينتفض من الألم، وكأنَّ صاعقة كهربية سرت في خلاياه، وثارت العواصف فجأة، وانطلقت الحيوانات من جحورها، وهي تعدو في كل اتجاه

وانطلقت الأعاصير، وطارت الخيام

وتعالى صوت صراخ النساء والرمال تضرب وجوههن في قسوة وقد سقطن فاقدي الوعي،

وجمح جواده الذي صار يرفس الأرض في غضب، وقد أخذ يرفع قائمتيه الأماميتين لأعلى، وانطلق كالمجنون، وسقط سلام من على ظهره أرضاً وهو يشعر بالألم يدبُّ في أوصاله، كان ألماً لا يطاق، كانت الرمال تضرب وجهه الأمر الذي ضاعف من شعوره بالألم، لكنه كان كمن فقد الإحساس بالألم؛ فقد كان ما يعنيه زوجته التي بدت العاصفة تلفُّ جسدها وهي تطلق صرخةً

ارتجت لها جنبات المكان، كانت صرخةً مفعمة بالفزع والألم، ألم اختزنته طوال سنوات عمرها، كان سلام يحاول النهوض في استماتةٍ محاولا الذود عن رفيقة عمره زوجته وحبيبة قلبه،

لكنه كان يشعر بالعجز، كان يشعر بشيء خفي يُكبِّل قدميه، ويمنعه عن الحركة، كانت دقات قلبه تزيد في عنف، كان يشعر بغصة من الألم والمرارة وهو عاجز عن حمايتها والذود عنها،

كل شيء بدا له عجيباً وغريباً، لا يجد تفسيرا لما يرى، ما الذي بيده ليفعله؟ أي شيطانٍ يحرِّك كل هذا؟ ولماذا؟ كانت كلها أمور يعجز عقله عن إدراكها، كانت أشياءً فوق الوصف، فها قد ثارت الطبيعة فجأة، وهطلت الأمطار في غزارة، وتطايرت الأشجار التي اقتلعتها العواصف من جذورها في كل مكان، وشعر سلام بالدنيا تغيم من حوله لكنه قاوم في استماتة حتى لا يفقد وعيه ولقد نجح في ذلك، وهدأ كل شيء، هدأت الرياح، والعواصف، وكفَّت السماء أمطارها، وسكن المكان، وخيَّم الصمت، وأمام عينيه رأى الفارس واقفا فوق جواده، وقد اختفت زوجته عن ناظريه، تبخرت، تلاشت، لم يعد لها أدنى أثر في المكان، ونظرة واحدة منه أطلقت كل الرعب الكامن في أعماقه، وأخذ جسده يرتجف في شدة؛ فأمامه بدا الفارس الذي كان مفعماً بالحيوية والنشاط وهو يهدد حياة زوجته منذُ لحظاتٍ قلائل، وقد تهاوى جسده من فوق الجواد وهو يهذي بكلمات غير مفهومة، وسقط الجواد جثة هامدة كسيده، وانطلقت من حلقه صرخةٌ تردد صداها في جنبات المكان، واستسلم جسده بعدها لجراحه وآلامه، وسقط سلام فاقد الوعي .

*****

٢ ـ البداية

وصل حسان إلى مكان الواحة ومعه عشرات الفرسان، وعقد حاجبيه في دهشة بعد أن وقف يحدق في ذهول في المكان الذي كانت معالمه قد تغيَّرت تماماً دون أن يعرف سببا لذلك فلم يكن قد أدرك العواصف الرملية العاتية والأعاصير، لكن بدت الأرض أمامه مبتلة بالمياه، وقد تناثرت الأشجار التي اقتلعتها الرياح والأعاصير في كل مكان بشكلٍ عشوائي كما لم يكن هناك أي أثر للخيام، كان يقول بصوت خافتٍ تسلل إلى أذن أحد الفرسان الواقفين بجواره: يا للهول! أي لعنة حلَّت بالمكان؟ بل أي شيء عبث به؟

هنا صاح الفارس في قوة: سيدي حسان أين السيد سلام ؟

أفاق حسان على عبارة الفارس من وجومه، وعيناه تدوران في المكان بسرعةٍ بحثاً عن سيده، ومئات الأسئلة تدور بذهنه، لكنه لمح جواد سيده بعيداً وقد وقف وهو يدني رأسه من شيء في الأرض، فانطلق حسان مسرعاً بجواده دون أن يصدر منه أدنى صوت، وعلى الفور لحق به الفرسان وأمامه رأى سيده فاقد الوعي وجسده ملقى على الأرض، وجواده يحاول الإطباق على سترته بفكيه ليرفعه لأعلى؛ حتى يعود به من حيث أتى، لكن سلام كان هامد الحركة ساكناً يبدو أشبه بالأموات ..

قفز حسان على الفور من فوق ظهر جواده، وتبعه اثنان من الفرسان انحنيا يفحصان جسد سيدهما في عناية بعد أن تراجع جواده للخلف بعد أن اطمأن لوجودهم؛ فقد كان يألفهم، انطلق الجواد مبتعدا وهم يتابعونه بأعينهم، وتوقف الجواد على بعد عدة أمتار منهم، وقف وهو ينبش الأرض بحافريه الأماميين بقوة، كان الجواد يبدو كمن أصيب بمس من الجنون، فقال حسان فور رؤيته لذلك وهو يشير إلى خمسة من الفرسان: اذهبوا إلى مكان الجواد؛ فواضح أنه هناك شيء يريدنا أن نعرفه ..

اتجه الفرسان على الفور لاحقين بجواد سلام، في نفس اللحظة التي قال فيها أحد الفارسين، والذي كان قد أدني أذنه من موضع القلب عند سلام: يا لعناية الآلهة: السيد سلام بخير؛ فقلبه مازال ينبض . هنا صاح حسان: أين الحكيم ربيع؟

تقدَّم شيخ عجوز خطَّ الشيب فوديه نحو سلام في بطء متكئاً على عصا كبيرة كان يمسك بها بكلتا يديه: على رسلك يا ولدي؛ لقد كاد صوتك يصيبني بالصمم .

كتم حسان غيظه وهو يقول: معذرة يا سيدي لم أكن اقصد ذلك، لكن قلقي و..

قاطعه الحكيم قائلا: أفهم .. أفهم .

قالها وهو يفحص جسد السيد سلام في عناية ودقة يساعده حسان في ذلك، وبعد أن انتهى من فحصه لجسد سلام قال الحكيم: إنه بخيرٍ لكن جسده بحاجة لبعض الراحة فقط و ..

قاطعه اهتزاز جسد سلام بين يدي حسان وهو يسعل في قوة، قبل أن يعتدل محاولا الوقوف، لكنه شعر بالوهن والضعف، هنا هلل الفُرسان لنجاة سيدهم الذي قال له الحكيم ربيع وهو يربت على كتفيه: رفقا بنفسك يا ولدي، لا داعي لإرهاق نفسك؛ فجسدك يحتاج للراحة.

قال سلام الذي كان قد اتكأ بجسده على حسان الذي أحاطت ذراعيه به في رفقٍ: أين أميرة ؟ وجميلة أين ذهبت؟ أين الوصيفات؟ أين باقي النسوة؟

كان يبدو كمن فقد ذاكرته، كاد حسان يهم بالرد، لكن سلام تذكَّر كل شيء فجأة، فقال وقد ارتسمت علي وجهه معالم الأسى والحزن: يالرحمة الآلهة، الشمس، الرياح، العواصف، هيئته، شعره الذي عفرته الرمال، وجهه الذي بدا مرسوما على ملامحه الفزع، كل ذلك جعل الجميع يظنون أنه يهذي أو أصيب بالحمى، لكنه واصل قائلا: أين كبير الفرسان؟ أين حسان؟

قال حسان: خلفك يا سيدي .

قال سلام: أين الصغيرة؟ أين جميلة يا حسان؟ هل هي بخير؟

قال حسان: هدئ من روعك يا سيدي؛ فجميلة بخير، إنها بديار القبيلة تلقى الرعاية اللازمة هناك .

تنهَّد سلام في ارتياح بعد أن اطمأن على صغيرته وقال: يا لرعاية الآلهة . قالها وهو يحاول النهوض فقد استعاد جسده نشاطه وحيويته، ساعده الفارسان في ذلك، أشار حسان إلى الخيمة التي كان قد انتهى من إقامتها الفرسان فور وصولهم قائلا: هيا يا سيدي لتستريح هناك .

أطاعه سلام الذي توقف فجأة عن المسير نحو الخيمة، وقد كان يبدو أنه تذكر شيئا هاما، وهو يقول لأحد الفرسان: عمر .

انحنى الفارس ضخم الجثة مفتول العضلات أمامه قائلا: أوامر سيدي .

قال سلام وهو يشير إلى اتجاه معين أمامه: خذ خمسة من الفرسان معك و..

وقبل أن يكمل عبارته قاطعه صوت جلبةٍ وضجيج في المكان، فنظر الجميع إلى مصدرها فبدا على بعد عدة أمتار بعض الفرسان الذين عادوا وبصحبتهم النسوة وقد عفرت الرمال أجسادهم ووجوههم التي كانت مثالا حياً للرعب والفزع ..

فقال أحد الفرسان: لقد وجدنا الرمال تغطي أجسادهم عند الموضع الذي راح ينبش فيه جواد سيدي الأرض عنده . قالها وهو يقطر بالحزن والأسى .

قال سلام: وأين الباقين؟

طأطأ الفارس وجهه أرضا قبل أن يقول: هؤلاء مَن وجدناهن على قيد الحياة يا سيدي، أما الباقين فقد لقين حتفهن، فقمت أنا ورفاقي بحفر الأرض ودفنهن .

أعادت عبارته لهم إحساسهم بالواقع، فقد رأى الجميع أثر الرمال التي غطت ملابس الفرسان ووجوههم، خيَّم الصمت على المكان الذي رفرف فوقه الحزن الذي كان يعتصر قلوب الجميع،

وقال سلام بعد فترةٍ من الوقت: عمر .. اسلك هذا الطريق فستجد أحدهم، وقد فر هاربا، أريده بأي ثمن؛ فوحده مَن يعرف السر.

قالها لينطلق عمر بسرعة إلى حيث أشار، وخلفه انطلق خمسة من الفرسان وجيادهم تنهب الأرض، في حين جلس سلام داخل الخيمة وحيداً بعد أن انشغل باقي الرجال بتمشيط المكان، والبعض الأخر في مساعدة الحكيم ربيع الذي بدأ في مداواة النسوة، وسرح سلام بخياله وذلك المشهد يأبى أن يفارقه، مشهد الشمس التي أغشى ضوؤها بصره، والتي أحاطت بزوجته التي اختفت فلم يعد لها أثر،ومشهد الرياح والعواصف والأعاصير التي راحت تضرب كل شيء، والفارس الذي فرَّ هارباً في هلع، كان يشعر بخلايا وتلافيف مخه تكاد تنفجر، كان يقول لنفسه أي ذنب اقترفه حتى يثير غضب الآلهة؟ مؤكد أنه هناك تفسير لكل ما حدث، فمن المستحيل أن يكون كل ما مرَّ به قد حدث عبثا، مؤكد أنه هناك قوى خفية وراء ذلك، ولكن لماذا؟أي فائدة ستعود عليها من الخراب الذي أحاط بالمكان؟

أسئلة كثيرة كان عقله يبحث لها عن جواب، لكنه كان عاجزاً عن ذلك، لا يدري سلام لماذا وجد نفسه يتذكر قصة اختفاء جده (عدي) مرة أخرى، لا يدري ما الذي جعله يربط بين اختفاء جده وزوجته رغم كل هذا البعد الزمني، كان ينهكه التفكير في زوجته التي اختفت فجأة، كان لا يدري ماذا يفعل؟ لكن كل هذه الأسئلة توارت، وسيطر على كيانه سؤالٌ واحدٌ أين ذهبت زوجته؟

*****

كان عمر منطلقا بجواده الذي كان ينهب الأرض في سرعة متجها إلى حيث أشار سيده، وخلفه خمسة من الفرسان الأشداء الذين كان واضحا على وجوههم أنهم لا يهابون الموت، كما كان سهلا على مَن يراهم أن يدرك حنكتهم ومهارتهم، وابتعد عن الواحة وبدت كثبان الرمال على الجانبين، واختفت المياه، والعشب، والأشجار، وبدت الرمال ممتدة على مد البصر ..

كانت صحراء جرداء قاحلة قد ألهبت شمسها الحادة رؤوسهم وظهورهم، وشعر بالندم الشديد هو والفرسان حيث أن سرعة تلبيتهم لأمر سيدهم أنستهم أمرا هاما، فقد نسوا حمل مياه للشرب معهم، وقد بدأ العطش يتسلل إليهم، وذبلت الشفاه، وجفَّت الحلوق فوقف أحد الفرسان وترجل بعد أن نزل من على ظهر جواده، وهو ما دفع عمر للقول: ما الخطب يا سعيد؟

قال سعيد الذي انحنى على الأرض ملتقطا حصاة وضعها في فمه وهو يحركها في كل اتجاه: ليس أمامنا سوى فعل ذلك للتغلب على العطش .

أومأ عمر برأسه موافقا فحذا الجميع حذوه، ثم أكملوا المسير، ومن بعيد بدا لهم هدفهم فلكز عمر جواده بكعبي قدميه في قوة، وهو يحثه على الانطلاق بسرعة أكبر، واستجاب الحصان لرغبة راكبه، وانطلق كالسهم، وضاقت المسافة أكثر بين عمر والهدف، ولاح لناظريه جواد أسود كقطع الليل البهيم وقد توقف بعد أن استبدَّ به التعب وهو يلهث بقوة، وقد بدا صوت أنفاسه مسموعا له، وفوق ظهره بدا فارس شاحب الوجه حُفرت على ملامحه آيات الفزع، وقد غزا الشيب شعره، كان يحدج عمر بنظراتٍ زائغة قبل أن يواري وجهه بكفيه اللذين رفعهما لأعلى، وهو يقول بصوت فزع: ما .. ماذا تريد مني؟ أنا ..

كان عمر قد اقترب منه، وأمسك بلجام جواده الذي جمح، وأخذ يتحرك في عشوائية بعد أن أصابه الفزع لرؤيته عمر والفرسان الخمسة الذين أحاطوا به من كلِّ جانب حتى إن راكبه كاد يسقط أرضا لولا أن استطاع عمرو السيطرة عليه، وهو يقول محاولا دفع السكينة في نفس الرجل: هدئ من روعك يا رجل، نحن لا نريد بك شرا .

قال الرجل الذي كان قد انكمش، وهو يتراجع للوراء: ماذا تريدون مني؟

يتمنى سعيد أن يجتزَّ رأسه من جسده؛ فقد كان يعلم من حسان أنه أحد قطاع الطرق الذين قاموا بمهاجمة رفاقه والقضاء عليهم، لكنه كان مضطرا لحمله معه سالما تنفيذاً لتعليمات سيده الذي قاله أنه الوحيد الذي يعرف سرَّ ما حدث، لذا وجد نفسه يقول: نحن لا نريد منك شيئا، لكن سيدي مَن يريدك .

تهته الرجل وهو يرغي ويزبد قبل أن يقول وقد ازداد شحوب وجهه حتى بات يحاكي وجوه الموتى: أعرف لماذا يريدني؟ يريد أن يعرف سرَّ الشمس الصغيرة، الرياح الـ .. الـ .. إنها اللعنة تقضي على كل من بالمكان .

قال عمر مستحثا الرجل على الحديث: أي كلام هذا الذي تقوله يا رجل؟ أي شمس صغيرة؟ أفصح عما لديك .

قال الرجل الذي زاد انكماشه، وهو يخفي وجهه بكفيه تماما: لا أستطيع، أرجوكم دعوني وشأني.

وأخذ يصرخ في هستريا: إنها اللعنة ... اللعنة

قال عمر بصوت خافت محدثا سعيد: يبدو أنه فقد عقله .

كان الرجل ما زال يهذي بكلمات بدت لهم غير مفهومة، فقال أحد الفرسان: أري أن نحمله معنا للسيد سلام .

قال ثان: وأنا أوافقك الرأي .

أجاب عمر: حسنا هذا ما سنفعله على كل حال، سأحمله على جوادي، ولتقد أنت يا سعيد جواده حتى نصل للسيد سلام، وهناك يفعل ما يرى .

وقبل أن يتحرك عمر لحمل الرجل على جواده، أخذ الأخير يهذي ويتساقط الزبد من فمه قبل أن يسقط من على ظهر جواده أرضاً، وقد خمدت حركته تماما، عقدت المفاجأة ألسنة الجميع وشلَّت حركتهم، قبل أن يفيقوا وهم يتلفتون حولهم في ذهول، وهم يظنون أن أحداً أصابه بسهم فأرداه قتيلا، لكن دون فائدة فلم يكن هناك أدنى أثر، مجرد رمال ..

تخلص عمر من ذهوله فانحنى، وهو يدني أذنيه من الرجل قبل أن يقول: لقد مات يا رجال .

كان الهلع قد أصاب الجميع وتملك الرعب قلوبهم فقال أحدهم: هيا بنا نغادر هذا المكان الملعون قبل أن تصيبنا اللعنة .

قال سعد الذي بدأ في حفر حفرة وسط الصحراء: لن نرحل قبل أن نواري جسده يا رجل، فلن نتركه لتأكله الحيوانات المفترسة ولا الطيور الجارحة .

انضم إليه الباقون مساعدين إياه في حفر قبر لآخر قطاع الطرق الذي لقي حتفه بطريقة بدت لهم غريبة، كانوا يواصلون الحفر وأجسادهم ترتجف من الخوف والرعب .

*****

داخل الخيمة التي نصبها الفرسان في الواحة كان سلام جالسا، وهو يستمع لما حدث من عمر وسعيد وباقي الفرسان الخمسة للمرة العاشرة، ومعه الحكيم ربيع الذي قصَّ عليه سلام كل ما حدث معه وباقي الرجال قبل قدوم عمر ورفاقه، وقد كان يبدو على وجهه الدهشة؛ فقد كان ما يقوله سلام غريبا، شيء لا يُصدق، ولولا ثقته في اتزان ورجاحة عقل سلام لظنه يهذي ولأوعز كل ما يقول للهذيان والخرافات، أما حسان فقد كان يستمع لما حدث لسيده ورفاقه بعد فراره بالصغيرة في ذهول، وقد فغر فاه دون أن ينطق بحرف واحد، وهو يقول لنفسه أي شمس صغيرة تلك التي يقصدها سيده، وها هم فرسانه يؤكدون ما قاله سيده؛ لذا فقد اندفع قائلا: - -- سيدي لا بد ان نرحل لديارنا على وجه السرعة، أي مكان نحن فيه؟ بل أي لعنة تلك التي أصابت المكان؟

قال سلام وهو ينهض: لن أبرح هذا المكان حتى أجد زوجتي، لن أعود بدونها، سأبحث في كل مكان، سأفتش كلَّ ذرة رمل .

صمت لحظة ثم قال: يمكنك أخذ الرجال والعودة إلى الديار .

ما أن نطق عبارته الأخيرة حتى علت الهمهمات والأصوات، وقال الفرسان في صوت واحد: -- ونحن معك يا سيدي، لن نعود بدون سيدتنا .

قال سلام: حسنا لنبدأ البحث .

كانت عبارته إيذانا للرجال الذين انطلقوا في كل اتجاه للبحث عن أميرة زوجة سيدهم، في نفس اللحظة التي جلس فيها الحكيم ربيع، وقد استغرق في التفكير في كل ما سمع، وعقله يكاد يُجن، لقد وجد نفسه يتذكر عدي جد سلام، لقد اختفى في أرض بكر كهذه، كما كان يتذكر وقتها أنهم فتشوا كل ذرة رمل، كل شبر في تلك الأرض، لكنهم لم ينجحوا في العثور عليه، وظل أمر اختفائه سراً لا يعلمه أحدٌ منهم، كل ذلك جعله يوقن أن الأمور لن تسير على ما يرام، كما كان موقنا من أن اللعنة لم تنتهِ بعد، لكنها البداية .

*****

٣ ـ الرحيل

استقرت الحياة بسلام ورجال قبيلته بعد أن فقد كلَّ أملٍ في استعادة زوجته أميرة، كان يشعر بغصة في حلقه كلما تذكر ما مرَّ به، لكن ما الذي بيديه ليفعله؟ فهو لم يدخر جهداً للبحث عنها، لقد قتل الواحة بحثا، لكنه لم يعثر لها على أدنى أثر،حتى أنه كان يشعر بأن تلك الشمس الصغيرة ستباغته في أي لحظة وتنقض عليه، ما الذي جعل هذا الشعور يسيطر عليه؟ لماذا يشعر بأن هذه الشمس كانت تقصده هو دون غيره؟ أسئلة كثيرة كانت تدور برأسه لكنه لم يجد لها جواباً، كما أنه استعان بالكهنة والسحرة؛ أملا في العثور على زوجته، لكنهم عجزوا جميعا عن معرفة مكانها، ولأن الحياة لا تقف على أحد، ولأن كل شيء يبدأ صغيرا ثم يكبر رويدا رويدا إلا المصيبة تبدأ كبيرة ثم تصغر؛ لذا فقد استسلم سلام لقدره، وواصل حياته بشكل عادي، لكنه لم يكن يستطيع نسيانها أبدا؛ فقد ترك فقدها على وجهه حزناً عظيماً، وخلَّف بأعماقه جرحاً لا يندمل، لكنه وجد في ابنته التي ورثت جمال والدتها ورجاحة عقله عزاءً لما حدث، فأصبحت هي شغله الشاغل، وزاد تعلقه بها أكثر، كان لا يقوى على مفارقتها أبدا، كان يصحبها معه أينما ذهب في زياراته إلى القبائل الأخرى وفي رحلات الصيد، كما حرص على تعليمها فنون القتال، والفروسية، والطعان، والنزال، فأبدت براعة شديدة في ذلك حتى أنها أصبحت تُجيد القتال لا يضاهيها في ذلك أبرع الفرسان، كما كانت تملك من رباطة الجأش والصلابة والثبات ما جعلها تتميز عن غيرها، كما أكسبها مرافقتها للحكيم ربيع العديد من المهارات فصارت بارعةً في مداواة المرضى والمصابين، كما صارت تتقن الشعر، وكان كل يوم يمرُّ يجعله يزداد تعلقا بها، فقد بدا من رجاحة عقلها وحصافة رأيها ما جعل لها هيبة ووقارا رغم صغر سنها، وكان ما ينغِّص عليه حياته فقده لزوجته، حتى صغيرته ظلت أياما طويلة لا تكلم أحداً، في عزلة لا تبارح مخدعها الخاص، لا تتناول إلا النذر اليسير من الطعام، شعر سلام وقتها بالحزن الشديد على ابنته، والتي كان يخشى أن يفقدها مثل والدتها، وشيئا فشيئا بدأت جميلة تخرج من عزلتها وتعود لحياتها الطبيعية، وهو ما أدخل السرور على قلب سلام، ولكن ولأن الحياة في الصحراء متقلبة كمناخها الذي لا يستقر على حال، ولأنه من المُحال أن نأمل دوام الحال، فقد بدأ الكدر والهم يتسلل إلى حياة سلام وقبيلته؛ فقد أعلنت الطبيعة غضبها، وأعلنت أرض القبيلة عصيانها، فقد جفَّت الآبار، ويبست

الأشجار، وبدأت الحيوانات في النفوق، وبدأ الجميع يعانون من العطش؛ فقد بدا مخزون المياه في التراجع، وأوشك على النفاذ،

فلم يكن أمامهم سوى الرحيل بحثاً عن مكان أخر ووطن جديد؛ فقد كانوا يخشون اللجوء لأي قبيلة من القبائل المجاورة؛ فقد كانوا يعرفون المصير جيدا، فكعادة الحياة التي يعيشونها لو علمت أي قبيلة ذلك فستقوم بمهاجمتهم على الفور، ولأنهم لا يميلون إلى العداء والقتال إلا دفاعاً عن أنفسهم، وبعد أن أعيا الجميع إيجاد مكانٍ جديدٍ توجد به المياه، قال لهم سلام أنه لم يعد أمامهم سوى مكان واحد يمكنهم الرحيل إليه والاستقرار فيه، وكان يعني الواحة التي فقد فيها زوجته، لكن قوبلت فكرته بالرفض من الجميع الذين كانوا يخشون اللعنة، لكن مع نفاذ المياه تماما اضطروا للقبول، ويمم الجميع وجوههم شِطر الواحة الملعونة .

*****

كم كان سلام وقومه واهمين حين ظنوا أن الحياة قد طابت لهم في تلك الواحة التي كانت تبدو أشبه بالجنة التي ازدانت بالنباتات والأعشاب والمياه التي كانت تجري في مجرى طويل ينتهي ببئر عميق دون أن يعرف أحد منهم مصدرها، فليس كل ما يلمع ذهبا، فرغم جمال الواحة وروعة منظرها إلا أن رؤيتها كانت تعني لسلام المزيد من الحزن والذكريات المؤلمة، سلام الذي كان دائم الشرود والحزن، فقد كان المكان يذكره بكلِّ ما حدث لزوجته، بكل ما لاقى من ألم ومرارة، كما كان شعوره بأن كرة النور أو الشمس الصغيرة كما كان يطلق عليها تتحين الفرصة للانقضاض عليه، كان يشعر أنها في انتظار الوقت المناسب لتفعل ذلك، كما كان ينظر لجميلة التي كانت تجلس على حافة الجدول تنظر إلى وجهها في صفحة المياه، كان ينظر إليها بعيون دامعة، كان يشفق عليها؛ فهو الرجل الكبير البالغ الذي أَلِفَ المخاطر لم يحتمل ما مرَّ به من تجربة مريرة، فكيف بها وهي طفلة صغيرة أن تحتمل ما رأت ؟ كان موقنا أنها عندما كانت تنظر إلى صفحة المياه كانت تغيب عن عالمها لترى صورة طفلة صغيرة كانت تجلس بجوار والديها اللذين كانا يمرحان ويضحكان في سعادة ورائحة الشواء تُعبِّق المكان، وتلك الطفلة تتناول الطعام مع والديها في نهمٍ وشهية مفتوحة، كانت ترى ذات الطفلة وقد حملها والدها خلفه فوق جواده قبل أن ينطلق مبتعداً عن قتال شديد يدور في المكان، الوالد يسلم الطفلة لأحد الفرسان الذي حملها أمامه فوق جواده، وهو يستمع لوصية والدها بأن يذهب بها وباقي النسوة إلى ديار القبيلة، وكم كان صادقا في ذلك؛

فقد كانت جميلة تفيق كلَّ يوم عند هذا الحد من الذكريات على صوته فتدرك أن الظلام خيَّم على المكان فتذهب إلى دارها، كانت لا تشعر بالجوع منذ قدومها إلى الواحة، كان ما يدفعها لتناول الطعام هو إرضاؤه فقط، كانت صورة والدتها التي تذكرتها فور رؤيتها للواحة وجدول المياه لا تفارق خيالها أبدا، كانت كلما نظرت إلى المرآة أدركت أنها تشبه والدتها تماما..

وبدأت قبيلة سلام في تشييد الديار، وقد تركوا النساء والأطفال في الخيام التي انتهوا من نصبها فور قدومهم لأرض الواحة، وكان العمل شاقا رغم روعة الجو واعتداله، وقارب الرجال من الانتهاء من تشييد الديار وهم يمنون أنفسهم بالراحة بعد يوم طويلٍ شاقٍ، وداخله كان سلام موقنا أن الأمور لن تجري على طبيعتها، وغابت الشمس عن الأفق في مشهدٍ بديع وألقى القمر بظلاله على المكان، وبدأت العاصفة فجأةً، وبدأت الحيوانات التي تقطن الواحة في الفرار خارجها وهي تعدو في سرعة جنونية مُخلفةً عاصفة رمليةً هائلةً أثارت الرعب داخل قلوب الجميع، وعلا صوت الأطفال بالبكاء، وارتفعت صرخات النساء، وامتطي سلام صهوة جواده بعد أن أفاق من ذهوله، وتبعه حسان وباقي فرسان القبيلة الذين التفوا حوله، بينما انتشر البعض منهم حول الخيام في محاولة لتأمينها، ووجد سلام نفسه يفترش الأرض بعد أن وجد جسده يطير من فوق ظهر جواده الأدهم الذي أخذ يتحرك ويدور حول نفسه في جنونٍ حتى تمكَّن من إسقاطه من على ظهره لينطلق الجواد وباقي الجياد فارين خارج الواحة، ورغم الألم الذي كان يشعر به سلام إثر سقوطه المباغت من على صهوة جواده إلا أن إحساسه بأن الخطر ما زال يحدق بالمكان سيطر على كافة مشاعره؛ فقد كان يعلم جيداً أن هروب الحيوانات من المكان يعني وجود خطرٍ ما أو قرب حلول كارثة بالمكان، وعمَّق هروب الحيوانات والطيور التي تقطن الواحة أمام عينيه شعور الخطر لديه، وقبل أن ينهض من عثرته أو يتفوه بحرف واحد، ثارت الطبيعة من حوله، وثارت عاصفةٌ من الرمال أخذت تضرب وجوههم وأجسادهم في عنف، وهبت الرياح تقتلع الأشجار وهي تحملها في خفةٍ في كل اتجاه كما يحمل إنسانٌ بالغ طفلاً رضيعاً، ومن بعيد رأى الفرسان صخور الجبال وهي تتهاوي، وقد حرَّكتها الرياح نحوهم.

جحظت عيونهم وهم يرون الصخور تقترب في سرعةٍ منهم، وقد أدركوا أي مصيرٍ سيلقون.

فقد أدرك الجميع أنه ما هي إلا ثوانٍ معدودة وتسحق الصخور أجسادهم، بينما جلس سلام وقد ارتجف جسده في رعبٍ، وهو يُشهر سيفه أمام صدره بعد أن نجح في استلاله من غمده في صعوبة، وأغمض عينيه في سرعة بعد أن أغشاها الضوء المبهر الذي ظهر فجأة، فعلى

بعد أمتار قليلة منه رأى سلام كرةً من الضوء الخالص تتقدم نحوه في سرعة، ووجد نفسه يتذكر زوجته ونفس الكرة تهاجمها قبل أن تختفي للأبد، وأغمض عينيه وهو يمد سيفه أمامه وقد عفَّرت الرمال وجهه، وسترته، وهو يرى الشمس الصغيرة تواصل تقدمها نحوه في سرعةٍ جعلته يجزم بأنه سيلقى نفس مصير زوجته أميرة، والرياح تعوي من حوله، والأشجار تُطيرها العواصف التي اقتلعتها من جذورها في كلّ اتجاه، وفي محاولةٍ يائسة منه قذف سيفه الذي استله من غمده في صعوبة نحو الشمس الصغيرة التي اختفت على الفور، توقفت الصخور عن اندفاعها نحو الفرسان، وتوقفت الأعاصير، وهدأت الرياح، وأبصر سلام فرسانه وقد بدوا كرجالٍ بُعثوا من قبورهم على التو، ورغم الآلام المبرحة التي كان يشعر بها سلام إلا أنه تحامل على نفسه، وهو ينهض واقفا وقد استبد به القلق الذي كان يعصف بكيانه، فقد كانت نفسه التي اعتادت ذلك توقن من أن جميلة تواجه خطراً داهماً، وأمام عينيه بدا كلُّ شيء غريباً مريعاً؛ فقد بدت وجوه الرجال والنساء وقد عفَّرتها الرمال، كان يتحرك في سرعةٍ للبحث عن جميلة ابنته الوحيدة، وحوله اصطفَّ الفرسان، وقد ارتسم الرعب على وجوههم؛ فقد كان ما رأوه خارقا للعادة، وتقدم حسان نحوه وهو يقول: هل أنت بخير يا سيدي؟

قال سلام: اطمئن يا حسان .

ثم نظر لباقي الفرسان وهو يتفقدهم مطمئنا إلى عدم إصابة أحدٍ منهم قبل أن يقول: هل الجميع بخير؟ قالها وهو يواصل بحثه وسط الخيام التي غطتها الرمال والديار التي أصبحت أثرا بعد عين عن جميلة التي اندفعت نحوه وهي تحتضنه، وجسدها يرتجف من الخوف، والدموع تتساقط من عينيها، شعر بروحه رُدَّت إليه عند رؤيتها، فضمها إليه في رفق، وهو يربّت على ظهرها، وقبل أن ينطق بحرفٍ واحدٍ اندفعت قائلة: لا بد أن نغادر هذا المكان .

كان صوتها متهدجاً وهي تواصل قائلة: إنه ملعون .. ملعون يا أبي .

قال سلام: هدئي من روعك يا صغيرتي سيكون كلُّ شيء على ما يرام و..

قاطعته صرخات الفزع التي انطلقت من حلوق الفرسان، وزاد نحيب الأطفال، وزادت صرخات النساء، وأمامه رأى أجسادهم ترتفع لأعلى وقد حملتهم طيورٌ ضخمة بين مخالبها، كانت أعداد غفيرة من الطيور تحلِّق مرتفعةً وهي تطير نحو اتجاه الجبال حاملةً أجسادهم التي بدت تتأرجح في كلّ اتجاه، وقد غطت السماء من كثرتها، وتوقفت الطيور على ارتفاع عشرة أمتارٍ من الأرض، كانوا يشعرون بضيق في النفس بسبب نقص الأكسجين، وداخله كان يشعر سلام

بالدهشة لتوقف الطيور المفاجئ، لكن ما هي إلا ثانية أدرك بعدها سبب توقفهم؛ فقد تخلَّت مخالب الطيور عن أجسادهم التي كانت تواصل سقوطها نحو الأرض في سرعةٍ، وقد أغمض كل واحد منهم عينيه منتظراً الموت، واصطدمت أجسادُهم بالأرض، وكم كانت دهشتهم فقد كانت الأرض رخوةً لينةً هشة ساعدت أجسادهم على امتصاص الصدمة، وقبل أن يلتقطوا أنفاسهم انبعث دخانٌ كثيفٌ في المكان حجب الرؤية عنهم، وتعالي صوت السعال، وشعر الجميع بأنفسهم يغيبون عن الوعي، وبأجسادهم تتفكك قبل أن يعودوا إلى وعيهم ليجدوا أنفسهم ممتطين جيادهم التي كانت تنهبُ الأرض وهي تنطلق مسرعة بهم، وقد لاحت لهم الواحة من بعيد، وهو ما جعل سلام يصرخ في غضب، وقد كان عقله يكاد يُجن: أيُّ عبثٍ هذا يا رجال؟

أي أمور غريبة تلك التي تحدث؟

قاطعه صوت حسان الذي كان يرتجف في خوف: كيف عدنا إلى هنا؟

صاح أحد الفرسان قائلا وهو يتلفت حوله في خوف: كيف .. كيف حدث هذا ؟ لقد ألقت بنا الطيور من أعلى . قالها وصمت لحظة كان يخشى أن يكون ما عاشه وهماً لم يشعر به أحد غيره، لكن إيماءة الفرسان برؤوسهم، وهيئة أفراد القبيلة جعلته موقنا أن ما مرَّ به حقيقة ..

ساد بعد عبارة الفارس صمتٌ عميق، واستغرق سلام في التفكير، ما هذا الذي يحدث؟ من الذي يعبث بالزمن معهم ويجعلهم يعودون لنقطة الصفر مرة أخرى؟ أي عدو يواجهون؟ ولكن كيف ذلك ؟ لماذا يحدث معه ذلك؟ انتزعته صرخات الفرسان، الذين ابتعد عنهم دون أن ينتبه لذلك من شروده، وتوقفت الجياد فجأة عن المسير، وقد جفلت، وأبت مواصلة تقدمها رغم أن الفرسان ألهبوا ظهورها بالسياط، لكن الجياد لوت أعناقها وهي تتقهقر متراجعة للخلف في محاولة منها لمغادرة المكان، لكن كل واحد منهم كان يُحكم القبض على زمام جواده في قوة، وجمحت الجياد وهي تركل وترفس الهواء، وأخذت تقفز لأعلى، وبدا كأنه قد أصابها مسٌّ من الجنون، وسقط الفرسان من على متن ظهورها، وأمامه رأى الأرض تنشق لتبتلعهم في باطنها قبل أن تعود، لطبيعتها، وقبل أن يفيق من ذهوله شعر بكرة شفافة تحيط بجسده، وقد نما داخله شعور كبير بأن قاطني هذه الواحة يرفضون احتلالهم أرضهم ..

سرت رجفة قوية في جسده وهو يواصل تفكيره ..

مؤكد ان هذه الواحة هي همزة الوصل بين عالمهم والعالم السفلي .

****

وجد سلام نفسه وجميع أفراد قبيلته وابنته داخل واحة أخرى تشبه الجنة، وهو ما جعله يشعر بالدهشة، ودفع داخله المزيد من التساؤلات التي لم يكن يجد لها جوابا، فكيف وجد فرسانه هذه الواحة رغم أنه أعياهم التفكير وارتادوا هذه المنطقة كثيرا أثناء بحثهم عن أماكن جديدة، كان يشعر بأن هناك منطقة مظلمة داخل عقله لا يستطيع الوصول إليها، لقد كان أمرا غريبا له، كان يحاول تذكر كيف أتى هو وقبيلته إلى هذه الواحة ومتي؟ لكن دون جدوى، كان الأمر مرهقا ومحيرا له، لقد كان يشعر بالصداع يمزّق رأسه كلما فكر في الأمر، كما كان شعور قوي سيطر عليه بأن هذه الواحة التي ظهرت فجأة والتي بدت كأنها نبتت من العدم لا تنتمي لعالمهم الذي أصبح يشوبه الغموض، كان يشعر بالخوف وهو يفكر في ذلك دون أن يهتدي عقله الذي أنهك في إيجاد جواب لكل هذه التساؤلات دون فائدة تُذكر، فحاول أن يتناسى الأمر برمته؛ فكم من أمور غامضة ماتت أجيال وولدت أجيال دون أن يفكَّ أحدٌ طلاسم غموضها، كان يحاول دفع الطمأنينة في نفسه الحيرى بذلك التفسير، وسرعان ما أخذ يقلِّب الأمر على عدة وجوه، ووجد في الواحة مخرجا مناسبا له حتى يفرَّ من شبح الذكريات الأليمة التي مرَّت به، والتي كانت لا تفارقه لحظة واحدة في واحتهم القديمة التي يقطنوها، فقد كان يرى شبح زوجته وكرة النار تحتويها، يطارده في كل جانب من جوانبها، كما كان يرى فيها نجاة لابنته الوحيدة، ومخرجا من حياة العزلة والألم الذي حفر معالمه في قلبها، وبدا واضحا على ملامح وجهها الملائكي، وظن سلام أن الحياة قد استقام أمرُها، لكن إلحاح جميلة في الذهاب إلى الواحة القديمة صار يُنغِّص عليه حياته، ولم تفلح محاولات إقناعه لها في إثنائها عن طلبها؛

فقد كانت لا تكل ولا تمل في طلبها، ولأن تجربة فقدان والدتها تركت في نفسه مخاوف شتى، وتلك البقعة المظلمة في عقله جعلته يرفض الاستجابة لمطلبها في بادئ الأمر، لكنه اضطرَّ لإجابة رغبتها عندما وجد الحزن يكسو حياتها، وعندما وجدها تعود إلى حياة العزلة مرة أخرى،

كان يرافقها وبصحبته عددٌ ضخم من الفرسان في البداية، كما كان يحاول دفع الطمأنينة داخله وهو يقول لنفسه: لقد عشنا في الواحة زمناً، ولم يحدث شيء، كما أنها لم تكن تبعد عنهم كثيراً، وتحيط بها الجبال من جهات ثلاث، ولا سبيل للمرور إليها إلا عن طريق الواحة التي يقنطونها،

هدأ عقله وتخلى عن مخاوفه، وأصبحت جميلة تذهب للواحة يرافقها وصيفاتها، وعشرة من الفرسان الأشداء همهم الوحيد حمايتها والذود عنها.

٤ – المجهول

كانت جميلة تجلس وسط وصيفاتها أمام خيمتها يتناولن الفاكهة الطازجة، وهن يمرحن، ويضحكن في سعادة، وقد اطمأن قلبهن لوجود عشرة من الفرسان الأشداء يحيطون بالمكان من كل جانب يعملون على حراستهم والذود عنهم، لكن ذهبت كل هذه الطمأنينة أدراج الرياح،

وتبخَّر الهدوء الذي يخيِّم على المكان، ووجلت قلوبهن؛ فقد تناهى إلى أسماعهن صوت صهيل الخيول وصليل السيوف، وأمامهن وعلى بعد أمتار بدت لهم عاصفة عاتية من الرمال قادمة في اتجاههن ووقع حوافر الخيول يقترب، فانطلقت الصرخات من حلوقهن، وبدا الفزع على وجوههن، ولم يضع الفرسان العشرة الوقت إنما امتطوا جيادهم على الفور، وهم يصطفون أمامهم شاهري سيوفهم انتظارا لمواجهة عدوٍ مجهول لا يعرفونه، وتقدمتهم جميلة التي امتطت جوادها على الفور، وحاول الفرسان إثنائها عن ذلك، لكن دون جدوى؛ فقد كان الجميع يعرف مدى عنادها،

وهدأت العاصفة، واختفي الغبار، وبدا أمام ناظريهم عشرة من الجياد الضخمة التي لم يروا لها مثيلا، وعلى ظهورها استقر عشرة من الفرسان ضخام الجثة شاهقي الطول، بدوا لهم أشبه بالعمالقة، وقد صاح أوسطهم بكلمات بدت مبهمة لهم غير مفهومة، وهو يرفع سيفه عاليا معلنا بدء القتال الذي أدرك معه الفرسان العشرة وجميلة والوصيفات اللاتي شلَّ المشهدُ ألسنتهن وحركتهن أن نتيجته لن تكون لصالحهم أبدا .

****

كان سلام يقطع المكان أمام داره ذهابا وإيابا، وقد نهش القلق أعماقه وهو يقول لكهل كان يسير بجواره: لقد تأخروا يا حسان، لقد خيم الظلام على المكان .

قال حسان كبير الفرسان والذي بدا عليه الهرم وكبر السن: لا داعي للقلق يا سيدي، مؤكد أنهم في طريقهم إلينا .

قاطعه سلام: قلبي يحدثني أنهم يتعرضون للخطر .

قال حسان الذي بدأ التوتر يسري إليه في لهجة حاول أن يصبغها بالهدوء: أي خطر سيتعرضون له يا سيدي وكلانا يعلم أنه ما من سبيل إلى الواحة إلا من هنا ؟

قال سلام وهو يضرب كفا بكف: لقد أخطأتُ حين استجبت لرغبتها . قالها وهو يتذكر الشمس التي أحاطت بوالدتها واختفت زوجته بعدها، امتقع وجهه عند تذكره ذلك، وهو يتخيَّل ابنته تلقى نفس مصير والدتها، فاتجه نحو فرسه يحل رباطه ويجهزه وهو يقول: احضر عشريناً من الفرسان الأشداء يا حسان .

انطلق حسان ينفذ تعليمات سيده على الفور، وما هي إلا ثوانٍ معدودة كان بعدها سلام يسير في اتجاه الواحة، وخلفه الفرسان، وبجواره حسان الذي أصرَّ على مرافقته، كانوا يسيرون في صمتٍ لا يبدده سوى صوت حوافر الخيل التي كانت تمضي براكبيها في سرعةٍ رهيبة، وكان القلق يعصف بأعماق سلام الذي كان يتمنى أن يسابق الريح؛ ليصل إلى الواحة ليطمئن على ابنته الوحيدة جميلة، وكان كلما اقترب من الواحة زاد قلقه؛ فلم يكن هناك أثر لها، وبدت الواحة أمام ناظريه وخطت الخيل داخلها، كانت الواحة خالية، فلم يكن هناك ما يدل على وجود جميلة أو الوصيفات أو أيا من الفرسان العشرة المكلفين بحراستها، وهنا استبدَّ الغضبُ بسلام الذي قال وهو يمشط الواحة بناظريه : ألم أقل لك يا حسان، أن ابنتي تتعرض لخطر ما ؟

كانت لهجته أقرب للبكاء، فقال حسان محاولا تهدئة الموقف: ربما اختلفنا في الطريق يا سيدي، فربما سلكوا طريقا أخر .

قال سلام في مرارةٍ، وهو يشير للفرسان الذين انتشروا في كلِّ أنحاء الواحة يمشِّطون كلَّ شبر فيها: أي طريق أخر يا رجل ؟ أنت نفسك قلتها منذ قليل، الواحة محاطة من ثلاثة جوانب بالجبال، ولا يوجد طريق إليها إلا هذا الطريق الذي يمرُّ بواحتنا، والذي سلكناه على التو .

قالها وقد تجمع الفرسان حوله بعد أن قال أحدهم: لا يوجد أي أثر لهم يا سيدي بالواحة .

زلزلت العبارة سلام الذي وقف وهو لا يحرك ساكنا؛ فقد تحققت ظنونه، لقد اختفت ابنته الوحيدة كما اختفت والدتها من قبل، وكما اختفي جده عدي، أي لعنة تلك التي تطارده؟ ولماذا هو؟ ما الذي اقترفه ليحرِّك غضب الآلهة ؟

انتزعه صوتُ أحد الفرسان من شروده وتفكيره وهو يقول: سيدي سلام سأسلكُ أنا واثنان من رفاقي طريق العودة حتى نرى الديار؛ فربما نلقاهم هناك ثم نعود .

قاطعه سلام قائلا: لا فائدة من ذلك يا فتي، فلو أنهم وصلوا الديار لوجدت عددا من فرساننا قادمين إلينا ليخبرونا بذلك .

أطرق الفارس رأسه أرضا في صمتٍ؛ فقد كان كلام سيده منطقيا، لكنه ما لبث أن قال: إذن لم يعد أمامنا سوى شيء واحد يا سيدي .

قال سلام في لهفة: وما هذا الشيء ؟ تكلم يا فتي .

قال الفارس الشاب أبيض الوجه، حليق اللحية، والذي لم يكن سوي زيد ابن كبير الفرسان حسان: سيبقي اثنان من الفرسان لحمايتكم، وسينقسم الباقون إلى ثلاث مجموعات، إحداها بقيادتي، والثانية بقيادة شهاب، والثالثة بقيادة مهاب .

فهم سلام ما يرمي إليه الفتي، فقال في حزم: بل سأكون أنا على رأس إحدى المجموعات، وأنت علي رأس المجموعة الثانية، وشهاب علي رأس المجموعة الثالثة .

قال زيد الذي انتظر سلام حتى ينتهي من حديثه: لكن دورك هنا سيكون مهما يا سيدي، كما أن تسلق الجبال يحتاج إلى ..

وجد غضاضة في إكمال عبارته، لكن سلام تجاوز الموقف، وهو يقول في حزم: لم أفقد قوتي بعد يا فتي، قُضِى الأمر .

انصاع الجميع لأوامره، ولم يحاول حسان إثنائه عن قراره؛ فقد كان يعرف مدى صلابة وعناد سيده، واستعد الجميع للانطلاق ناحية الجبال الثلاث التي كانت تحيط بالواحة من جميع الاتجاهات، لكن قبل أن يتحرك أحدٌ منهم قيد أنملة، أعلنت الطبيعة غضبها، وثارت الرياح، وضربت العواصف الرملية المكان، تطايرت الأشجار، وسقطت الصخور من فوق الجبال وهي تندفع نحوهم في سرعة، وضيعت الرياحُ أصواتهم، وبدت الخيول تقفز لأعلى وهي تدور حول نفسها في عنف، كان يبدو أنها أُصيبت بالجنون، وسقط الفرسان أرضاً، كانوا يشعرون بالألم في كل خلية من خلايا جسدهم، وضربت ذرات الرياح وجوههم في عنف جعلهم يطلقون آهات الألم، حتى محاولات إخفاء وجوههم بأيديهم باءت بالفشل، ومن بعيد لاحت لهم الصخور وهي تندفع نحوهم، كانوا يشعرون بالعجز، وهم يحاولون النهوض، لكنهم كانوا يشعرون بشيء خفي يكبل أقدامهم، ويشدهم للأرض فيجعلهم عاجزين عن الحركة ويجبرهم على البقاء جالسين على الأرض، كان نفس شعور العجز يتملك سلام الذي استطاع في صعوبة أن يستلَّ سيفه، وقد كست ملامحه الرعب؛ فعلى بعد أمتارٍ قليلة منه كانت شمس صغيرة سطع ضوؤها فأغشي الإبصار، كانت تتجه نحوه هو، وتذكرها سلام، كانت تشبه الشمس التي أحاطت بزوجته من

قبل، والصاعقة التي انقضت على جده، وتلاشى بعدها ولم يعد له أثر، كما أيقن عند رؤيتها من صحة ظنونه .. مؤكد أنه المقصود منذ البداية، ومع اقترابها منه أدرك أيَّ مصيرٍ سيلقى .

****

في كثير من الأحيان وفي اللحظات الفاصلة لا تُقاس الأمور بظاهرها، فلعلَّ الناظر لضخامة الفرسان العشرة والذين بدوا كالعمالقة وهم يطلقون صيحة رددت صداها جنبات الواحة، وارتجت لها قلوب الوصيفات والفرسان، كان يدرك أن لحظات قليلة هي كل ما تبقى لتنتقل جميلة ومن معها من خانة الأحياء إلى خانة الموتى، ووقفت جميلة التي حباها الله بحسنٍ ربَّاني، وجمال أخَّاذ، وفتنة طاغية، ورقة تفوق رقة النسيم، وهي تحدِّق في ذهول في المشهد الكائن أمامها، فرغم سماعها للعديد من الروايات التي تقشعر لها الأبدان والحكايات المرعبة، لكنها أدركت أمام ما ترى أن موقفاً واحداً حقيقياً يمرُّ بها يجعلها تدرك المعني الحقيقي للرعب، كانت العواصف تضرب بكل شيء، والأمطار تهطل في غزارة، وعمالقة ضخام الجثة عجز بصرها عن رؤية أجسادهم كاملة، كانت تمد بصرها في ذهول، وقد ارتسم الخوف على وجهها، ودقات قلبها تواصل ارتفاعها، وقبل أن ترفع جميلة سيفها بيدٍ مرتعشة نحو أحدهم استعداداً للقتال إلى جانب رفاقها، وجدت المعركة قد انتهت في نفس اللحظة، وكانت المعركة غير متكافئة، فلقد طارت الرؤوس، وشُقَّت الصدور، وسالت الدماء أنهارا، وخمدت صرخات الوصيفات، فلقد لقي الجميع حتفه، كانت تنظر إلى جثث رفاقها ووصيفاتها والرؤوس التي تطايرت في ذهول، فقد أنهى العمالقة المعركة لصالحهم بسرعة البرق، ووجدت نفسها وحيدة في مواجهة تسعة منهم، وقد أحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم، وقد ارتفعت سيوفهم عاليا استعداداً لتمزيقها إربا، وعيونهم تطلُّ منها نظرات الغضب والرغبة في سفك المزيد من الدماء،

ورغم أنها اعتادت المخاطر ولم يكن أمامها سوى مصير واحد هو الموت في معركة حُسمت نتيجتها قبل أن تبدأ، وبكل الغضب الكامن في أعماقها، والرغبة في الثأر لرفاقها قررت القتال حتى آخر نفس وهوت بسيفها نحو أقرب الفرسان لها وأصاب سيفها الهواء، أخذت تُحدِّق حولها في جنون، وهي تهرول في المكان دون هدى، لقد اختفى العمالقة فجأة كما ظهروا، وبقيت جثث فرسانها البواسل ووصيفاتها من حولها، أخذت تهذي وتصرخ في خوف امتزج بالغضب، وقبل أن تتمادى في أحزانها شعرت بالدماء تتجمد في عروقها؛ فقد رأت ذلك الكائن بشع الخِلقة، والذي كان يشبه التنين قادماً نحوها، وهو يقذف بكرات النار التي اشتعلت من حوله.

كان يُصوِّب عينيه المتقدتين نحوها، وهو يرمقها بنظرةٍ زلزلت أعماقها، وجعلت عقلها يتوقف عن التفكير، وجسدها الذي أخذ يرتجف في شدةٍ يعجز عن الحركة، وتلك النار التي حذرها منها أسلافها وجدودها؛ فقد كانوا يعلمون ممن قبلهم أنها منبع الشر، كان كلُّ شيء لا يسير على وجهه المعتاد، عقلها يصرخ في صمت، وهي تحدق في ذلك الكائن الأسطوري الذي كان يواصل تقدمه نحوها، وتلك النيران العجيبة التي كانت تخرج من فمه، والتي عجزت المياه في إخمادها رغم معرفتها ما للمياه من قوة وسطوة على النار، تريد الفرار لكن الي أين؟ كانت تشعر بشيء يُكبِّل قدميها فيجعلها عاجزةً عن الحركة، تحاول أن تتحرر من جمودها، فالكائن قد أصبح على بعد أمتارٍ قليلة منها، حتى أنها كانت تشعر بأنفاسه الكريهة والتي كانت تلفح وجهها، وقد لازمها شعور غريبٌ بأنه سيذوب من شدة حرارة تلك الأنفاس، وأنها ستحترق قبل أن تصيبها كرة من كرات النار التي يطلقها، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، فقد ظهر العمالقة فجأة ليحيطوا بذلك الكائن البشع الذي أطلق نيرانه التي اشتعلت في أحدهم، وهو ما جعلهم يزمجرون في غضب، وقد غاصت سيوفهم في جسده الذي بدا منيعا حصيناً، وقد عاد لتلتئم جراحه في سرعة، وهو يغرس مخالب يديه في صدر أحدهم مقتلعا قلبه، والدماء تسيل من موضعه وقد هوى العملاق من فوق جواده، كان جسدها يواصل ارتجافه، وقد شحب وجهها حتى بات يحاكي وجوه الموتى، وهي ترى بعينيها ذلك المشهد البشع، وهي تشعر بالشفقة تجاه العمالقة الذين سقط نصفهم قتلي في خلال لحظات قليلة، العمالقة الذين قتلوا فرسانها ووصيفاتها من دقائق، وكانوا على وشك الفتك بها، وكما يقولون الكثرة تغلب الشجاعة فقد استطاع العمالقة من اجتثاث رأس الكائن البشع، ووجدت جميلة نفسها في مواجهة العمالقة مرة أخرى، وقد زادهم مقتل رفاقهم شراسة، ومن خلال نظرتها الفاحصة للمكان كان أمامها حلين لا ثالث لهما، إما أن تعدو لتقفز في البئر لتموت غرقا في أعماقه، أو تقفز لتدخل الكهف الجبلي الذي كان يفصلها عنه أمتار ثلاثة، ولكن هل سيتركونها تفرُّ وهي بين براثنهم، يحيطون بها من كل جانب؟ وقبل أن يتحرك أحدهم نحوها لتجد نفسها في مواجهتهم مرة أخري في معركة ستخسرها عدت جميلة مسرعةً، وقفزت في رشاقة وقوة لتجد نفسها عند مدخل الكهف.

وجُنَّ جنون العمالقة فقام أحدهم بتصويب السيف وقذفه نحوها، ومالت جميلة بجسدها جانبا فاصطدم السيف بالصخر ليرتد في عنف مصدرا صوتا عاليا، وقبل أن يقفز العمالقة بخيولهم ليصبحوا أمام الكهف قفزت جميلة داخل الكهف الذي كان لا يتسع مدخله إلا

لشخص متوسط الطول والحجم، وبدا الكهف ممهدا مصقول الجوانب، وجميلة تعدو داخله وهي ترى العمالقة الذين ثارت ثائرتهم، وهم يحاولون دخول الكهف خلفها، وقد باءت كل محاولاتهم بالفشل؛ فقد كان المدخل لا يتسع لأجسادهم الضخمة، ورأت أحدهم يمد يده الممسكة بالسيف نحوها محاولا أصابتها فزادت من سرعتها حتى تصبح بعيدة عنهم، واختبأت خلف صخرة بارزة في نفس اللحظة التي أخرج فيها أحد العمالقة قوسه، ووضع أحد السهام وشد وتره لينطلق السهم نحوها لكنه اصطدم بالصخرة قبل أن يتحطم ويسقط أرضا، ونفس العملاق يعاود الكرة مرة وثانية وثالثة لكن دون جدوى، وأمام عينيها وهي تختلس النظر من خلف الصخرة رأت أغرب شيء من الممكن أن تراه، فقد بدأ العمالقة في اقتلاع الصخور بأيديهم، وأدركت جميلة أنهم لن يتركوها تفرُّ منهم، وبات وشيكا أنهم سرعان ما سيصلون إليها، لكن ثارت الرياح، وضربت الأعاصير المكان، وهوت الصخور فوق رؤوس العمالقة وأجسادها لتسحقها سحقا، وعمَّ الظلام المكان فأدركت جميلة أن الصخور سدَّت مدخل الكهف، وأنها صارت وحيدة في كهفٍ جبلي سُدَّ مدخله، وأنه لم يعد أمامها إلا انتظار الموت .

*****

كان الفرسان يدركون أنهم ميتون لا محالة، وأن الصخور ستسحق أجسادهم، كما كان سلام يدرك أنه سيلقى نفس مصير زوجته، وهو يرى الشمس الصغيرة تدنو منه وهو عاجز عن الحركة لا يستطيع النهوض أو الفرار، وقبل أن تحيط الشمس بجسده قذف سلام سيفه في منتصفها تماما، سمع صرخة ألم أقسم فيما بعد أنه لم يسمع مثلها أبدا، فتح بعدها عينيه وهو يسمع صوت زيد وهو يقول: يا للآلهة إنه شيءٌ مريع .

اختفت الرياح والعواصف والأعاصير، واختفت الشمس الصغيرة، وكفَّت الصخور عن اندفاعها،

وعادت الواحة إلى هدوئها، ظل الجميع قابعين يلتقطون أنفاسهم قبل أن يقول حسان قاطعا الصمت الذي خيَّم على المكان: يا للهول ! أي عبث نواجه ؟

اندفع أحد الفرسان قائلا: يبدو أنها أرضٌ محرمة يا سيدي، هذا المكان ملعون .

نهض سلام واقفا في صلابة وهو يقول: أنتم في حلٍّ من أي وعد قطعتموه على أنفسكم، سأذهب لأبحث عن ابنتي وحدي .

قال عمرو: ونحن معك يا سيدي .

واندفع مهاب قائلا: لن نتركك تذهب وحدك .

اندفع باقي الفرسان يؤكدون بقائهم معه، وقبل أن يستعد مهاب وفرقته وزيد ومن معه وسلام وباقي الفرسان للتحرك باتجاه الجبال الثلاث لصعودها، شهق حسان في دهشة جعلت الجميع يلتفت إليه وقال سلام: ما الذي حدث يا رجل؟

قال حسان وهو يشير إلى نقطة بالجبل الأوسط: انظر يا سيدي، يبدو أنه كهف .

نظر سلام نحو المكان الذي يُشير إليه لتقع عيناه على مدخل الكهف فقال في ذهول: عجبا كيف لم نلمح هذا الكهف من قبل، رغم تمشيطنا الواحة مراراً وتكراراً في السالف ؟

قال مهاب: انه أمر مريبٌ يا سيدي، فانا أقسم إنني ورغم حضوري إلى هنا لم أرَ هذا الكهف من قبل أبدا .

قال أحد الفرسان مقاطعا: يبدو أنها أرض ..

صمت دون أن يقوي على إتمام عبارته، فقال سلام محدثا إياه: أرض مَن ؟ تحدث يا فتي .

كان الفارس يرتجف، وقد بدت على وجهه علامات الرعب، وهو يقول بصوت خافت،وهو يلتفت حوله كمَن يخشى أن يسمعه أحد: أرض الشيطان .

ما أن نطق عبارته، حتى سرت الرجفة في أجساد الجميع، وأطلت من عيونهم نظرات الخوف والرعب، ووجد سلام في قول الفارس تفسيرا منطقيا لما يرى، فقد استعاد عقله كل ما مرَّ به

ثورة الطبيعة المفاجأة .. الرياح .. الأعاصير .. الأمطار .. الشمس الصغيرة .. اللعنة التي حلَّت بالمكان .. لا بد أنه هو الذي أطلقها، مؤكد أنهم أثاروا غضبه؛ لانتهاكهم حرمته، واختراقهم أرضه، كان كل شيء يوحي له بذلك، سرت رجفة قوية انتفض لها جسده، كان يقول لنفسه أنه لو كان في ظروف أخرى للاذ بالفرار هو ومَن معه، لكن اختفاء ابنته الوحيدة يُحتِّم عليه البقاء والقتال، فنفض عنه أفكاره وهو يقول: سنغيِّر الخطة يا رفاق .

قال حسان: وما الذي سنفعله يا سيدي؟

أجاب سلام، وهو يتفحص الفرسان بعينيه جيدا، ويتحرك في اتجاه الكهف حتى أصبح أمامه تماما: ستبقى أنت وهؤلاء الفتيان الثلاثة. قالها وهو يشير إلى ثلاثة من الفرسان ثم أكمل قائلا: وسأدخل أنا وباقي الفتيان الكهف؛ لعلنا نجد جميلة وفرساننا بالداخل، فمؤكد أن هذا الكهف يحوي بين جدرانه الحل .

علت الهمهمات والجميع ينظرون إلى الكهف الذي بدا ممتدا ممهدا، وكأنه ممر طويل، وقال مهاب: لتبقَ أنت يا سيدي في انتظارنا .

قال سلام وهو يتقدم داخل الكهف: لقد حسمنا هذا الأمر من قبل .

لحق به باقي الفرسان، وقبل أن يواصلوا تقدمهم شعروا بالظلام يُخيِّم على المكان، فأمام أعينهم انهارت الصخور التي سدَّت مدخل الكهف، أدركوا بعدها أنهم أصبحوا سجناء داخل كهف جبلي ظهر فجأة، ولم يكن له وجود، وأنه لم يعد أمامهم سوى السير وسط الظلام نحو المجهول .

****

٥ ـ عالم آخر

واصلت جميلة سيرها دون هدى داخل الكهف الجبلي، وهي تتخبط في مشيتها بعد أن حلَّ الظلام الدامس بالمكان، بعد أن سدَّت الصخور مدخله، لكن سرعان ما ألفت عينيها الظلام، وبدأت تتزن في مشيتها، كان الطريق ممتدا حتى ظنت جميلة أنه لا آخر له، كان عقلها يسترجع كلَّ ما حدث، العمالقة الذين ظهروا فجأة وجيادهم الضخمة، وذلك الكائن الأسطوري والذي كان يلاحقها بكرات النار التي كانت تندلع من فمه، واشتباكه مع العمالقة الذين ظهروا فجأة في قتال عنيف حسمه العمالقة لصالحهم، والذين كان لديهم إصرارٌ رهيبٌ للحاق بها.

واعتصر الألم قلبها وهي تتذكر وصيفاتها وفرسانها العشرة الذين فقدوا حياتهم، وهم يذودون عنها، كانت تغمض عينيها في حركة لا إرادية رغم أن الظلام كان يحيط بالمكان، وهي تتذكر الرؤوس التي انفصلت عن أجسادها، والتي أطلَّ من عيونها الرعب، وأنهار الدماء التي سالت لتغرق المكان، وهذا الكهف الذي كانت موقنة أنه لم يكن موجوداً من قبل، كانت تقسم أنه نبت من العدم، فرغم ارتيادها الواحة لسنواتٍ عديدة، وتجولها في كلِّ أرجاء الواحة إلا أنها لم تره، لم يكن له وجود، هناك شيء غامض في الأمر، كل شيء يبدو لها مبهماً، وجدت نفسها تتذكر والدتها دون أن تدري ما الذي جعلها تتذكرها في هذا الوقت بالتحديد، سيطر عليها شعور غريب بأنها ربما تلقاها قريبا، كانت تقول لنفسها ربما هو شعور الإنسان الذي يدرك أن ساعته قد حانت قبلها، وربما هي مجرد وساوس ولَّدتها وحدتها في مكان كهذا، وربما ما واجهت من هولٍ وأجسادٍ وأشلاء رفاقها التي أبت أن تفارق عقلها، كانت تمتعض وهي تتذكر ذلك، وتشعر بغصةٍ من المرارة والألم في نفسها التي هدأت، وهي تتذكر المصير الذي لقيه العمالقة وصخور الجبل تنهار لتسحق أجسادهم في عنف وبشاعة ..

اصطدم جسدها فجأة بجسم صُلب فسقطت في عنف، وقد شعرت بالألم يسري في جسدها، ونهضت في صعوبة، ويدها تتحسس الجسم الصلب، فأدركت أنه نهاية الكهف كما أدركت أنها صارت سجينة ولا مخرج أمامها، وقفت برهةً وهي تفكر هل تعاود المسير نحو مدخل الكهف مرة أخرى؛ لعلها تستطيع إزاحة الصخور والخروج، كان يبدو هذا الأمر بالنسبة لها غير منطقي؛ فقد كانت تعلم مدى ضخامة الصخر، وأنها لن تستطيع زحزحة صخرة واحدة منها قيد أنملة، كما كانت تخشى من وجود المزيد من العمالقة أمام المدخل في انتظار خروجها للثأر منها

والانتقام لرفاقهم، فوجدت نفسها تعاود لمس الجدار الصخري بيدها، وهي تطرق برأسها إلى أسفل بعد أن دبَّ اليأس في نفسها، كان ملمس الجدار الصخري ناعما، كانت تدفع الجدار بقوة لعلها تجد مخرجا، وغاصت يدها في تجويف لم تتمكن من رؤيته بسبب الظلام الدامس الذي يغرق المكان، وشعرت جميلة بشيء مجهول يدفع يدها التي غاصت داخل التجويف للخارج،

فتراجعت للخلف في فزع، وهي تسمع لصوت صرير، ثم ما لبث أن انشق الجدار إلى نصفين أمامها، وقد بدأ شعاع من النور يتسرب داخل المكان فأغشى بصرها للحظات قبل أن تعتاد عيناها التي ألفت الظلام النور مرة أخرى، وأمامها بدا الجدار الصخري كأنه باب عملاق انفتح على مصراعيه على الجانبين، وقبل أن تنتظر الباب الذي بدأ يعاود الإغلاق قفزت جميلة إلى الجانب الآخر غير مباليةٍ بالجدار الصخري الذي عاد إلى وضعه مرة أخرى، واستندت جميلة بظهرها على الجدار ملتقطة أنفاسها، وهي تنظر أمامها لترى عالما آخر أدركت أنه يحمل لها العديد من المفاجآت القاتلة .

*****

سرت رجفة شديدة في جسد سلام وفرسانه بعد أن سدت الصخور مدخل الكهف، كانوا يشعرون بالرهبة وهم يواصلون سيرهم داخل الكهف وسط ظلام دامسٍ لفَّ المكان، حتى أن أحدا منهم لم يتفوه بحرف واحد، كان المكان يتسع من حولهم كلما توغلوا في المسير، وبدأت معالم المكان من حولهم تتضح رويدا رويدا، وقد بدأ شعاع من النور يخترق المكان دون أن يعرفوا مصدره،

فظن الجميع أنهم يقتربون من الجانب الآخر من الكهف، فهمَّ سلام الذي كان يتقدمهم في سيره، وأسرع الجميع الخطى محاولين اللحاق به، ومن بعيد لاح له الجانب الآخر من الكهف،

كان واديا منبسط الأرضِ ممتداً غمرته أشعة الشمس، وقبل أن يخطو سلام خارج الكهف، وقف وهو يقول: عجبا كيف تغمر أشعة الشمس المكان، ونحن هنا وقد خيَّم الظلام المكان بالخارج؟

نحن الآن في الليل، أي عبث هذا؟!

قال زيد وهو يبتلع ريقه في صعوبة: يبدو أن جاسر كان محقا يا سيدي، إننا في أرض الشيطان حقا .

أثارت عبارته الرجفة في قلوبهم، وهم يتذكرون الصورة التي رسمها أجدادهم للشيطان، وتخيَّل الجميع أن الشيطان بجسده الضخم سيقوم بمهاجمتهم، وستخرج كرات النار من عينيه المشقوقين طوليا كعيون الثعابين لتفتك بهم، كما تخيلوا أن مَن سينجو منهم سيجد قرني الشيطان يغوصان في جسده لينتزعا قلبه من صدره، أو تدوسهم أقدامه التي تشبه حوافر الخيل، كانوا يتبادلون النظرات فيما بينهم قبل أن يحسم سلام الأمر، وهو يخطو خارج الكهف، وقد شعر بالدفء يدبُّ في أوصاله بعد أن غمرت أشعة الشمس جسده، وسرعان ما لحق به الجميع إلى الخارج، ووقف الجميع مشدوهين، وقد أنستهم روعة المنظر رهبتهم ورعبهم والخوف الذي كان يسيطر على نفوسهم منذ دقائق معدودة؛ فأمام عيونهم بدا أجمل مشهد يمكن أن تراه عيونهم، فعلى يمينهم امتدّ نهرٌ صافي المياه ينساب في نعومة، وهم لا يعلمون من أين تنطلق مياهه، وهو ينساب في مجراه، وعلى بعد عدة أمتار يسارهم كانت حديقة غنَّاء من الأشجار والزهور الرائعة التي كانت تُعبِّق المكان برائحتها العطرة النفَّاذة التي تسللت إلى أنوفهم، فسيطر عليهم شعور بالراحة والسكينة، وأمامهم بدا المكان ممتدا منبسطا، يبدو أنه لا نهاية له، واتجه أحد الفرسان نحو النهر، وانحنى يمد كفيه وهو ينظر إلى المياه الصافية في انبهارٍ، واغترف الماء وهو يشرب في نهمٍ منها وهو يشعر بعذوبتها، انتهى من الشرب وهو يشعر بشيء يجذبه لينزل المياه لكنه قاوم رغبته، لقد كانت المياه صافية شفافة لا يكدرها شيء حتى أنه ظن أنه لا يوجد أي كائنات، فلم يكن مألوفا لهم رؤية الأنهار، فقد كانوا في بيئتهم الصحراوية لا يعرفون سوى الآبار وينابيع المياه التي تخرج من باطن الأرض لتسير في جداول محدودة السعة، أما أن يرى مجرى مائي بمثل هذه الضخامة، فقد كانت هذه هي المرة الأولي التي يرى فيها مثل ذلك، وانتزعه صوت زيد من شروده وهو يقول: هيا يا جميل .

استدار ليلحق برفاقه الذين كانوا قد بدءوا المسير فعليا، لكنه قبل أن يفعل ذلك أطلق صرخة حملت كل رعب الدنيا، فأمامه مباشرة بدا كائنا ضخما هُلامي الشكل له أهداب، وقد فتح فاه الضخم، وبرزت أسنانه الحادة، وقبل أن يتحرك جميل من مكانه شعر بقوة هائلة تجذبه نحو فم الكائن العملاق الذي ابتلعه، وقبل أن يتحرك سلام أو أحد من فرسانه لإنقاذه بعد سماعهم للصرخة التي أطلقها، رأوا الكائن الهُلامي يبتلعه ثم غاص الكائن في المياه، واختفى عن أنظارهم تماما، وقف الجميع وهم يحدقون في ذهول، وقد تملكهم الرعب، وقبل أن يستجمع سلام شجاعته عاود الكائن الظهور مرة أخرى، وهو يلفظ جسد جميل بعد أن قذفه نحوهم

ليسقط على مقربة منهم، وأمامهم بدا جسد جميل رخوا هشاً، وقد خلت نظرة صاحبه من الحياة، فقد بات واضحا أن الكائن الهُلامي قد امتصَّ عظامه، وتركه هيكلا جلديا خاليا من العظام باستثناء رأسه، شعر الجميع بالرعب والامتعاض، وهم ينظرون إلى جثة رفيقهم، ولا إراديا وجد سلام نفسه يتراجع للخلف، واصطدم جسده بإحدى الأزهار الضخمة، وقبل أن يستعيد توازنه متحركا للأمام، وجد أغصان الزهرة وقد التفت حول جسده في قوة، وقد التفَّ أحدها حول ساقيه والآخر حول زراعية وثالث حول عنقه، وشعر سلام بالزهرة تعتصر جسده بعنف، وبدأت أنفاسه تضيق، وشعر بضلوعه تكاد تتحطم، وشعر بسائلٍ لزجٍ دافئ ينساب من الزهرة ليغرق جسده، وأمام عينيه رأى أحد أغصان الزهرة يقف منتصبا نحو صدره كحربة حادة.

****

كانت جميلة تسير بلا هدى، وقد بدت حولها الأزهار والأشجار التي زينت جانبي الطريق، وقد غمر الضوء المكان حولها دون أن تعرف مصدر الضوء، وأمامها كان المكان يزخر بالمباني الضخمة التي لم تصادف مثلها رغم مرافقتها لوالدها في أغلب رحلاته وزياراته للقبائل الأخرى ورحلات الصيد التي كان يقوم بها، كان عالما آخر بالنسبة لها، عالما عجيبا وغريبا، كان الغموض يحيط بكلِّ ما حولها، فرغم كل ما يحيط بالمكان من أزهار وأشجار ومياه عذبة تنساب أمامها عبر جدول صغير ممتد إلا أن المكان بدا خاليا من أي أثر للحياة، كان يبدو كجنة قفر خالية من الناس، ووجدت نفسها تقف أمام مبنى ضخم طُليت جدرانه باللون الأبيض،

كانت تُحدِّق فيه في ذهول، فقد كان شاهق الارتفاع ممتلئ بالنوافذ الموصدة، وكان له باب مصنوع من خشب الأبنوس الأسود، ظلت تُحدِّق فيه برهةً بذهول، وهي تحاول معرفة مَن الذي استطاع تشييد مثل هذا المبني الضخم، بل وتلك الحديقة الغنَّاء والتي زخرت بأشجارٍ وأزهار لم ترَ لها مثيلا، والتي كانت تحيط به من كلِّ جانب ؟ أي قوم استطاعوا عمل ذلك ؟ سرت قشعريرة في جسدها وهي تفكر؛ فقد وجدت تفكيرها يقودها إلى كائن واحد يستطيع فعل ذلك،

وأغمضت عينيها وهي تذكر اسمه .. الشيطان

مؤكد أن الشيطان وأعوانه هم مَن صنعوا مثل هذا العالم الغريب، أخذت تُحدِّق حولها في رعب، وهي تنظر في كل اتجاه لا إراديا، وتتراجع للخلف خوفا من انقضاضهم عليها، وجهها يبدو شاحبا وقد أعياها التفكير وهي تنتظر الخطر في كلِّ لحظة تمرُّ بها، ومرت دقائق بدت لها أشبه

بالدهر، احتفظ فيها المكان بهدوئه القاتل، ترعبها حركة الأغصان وحفيف أوراق الشجر بعد أن حركتها الرياح الباردة التي كانت ترتطم بوجهها، ومع الصمت المخيم على المكان استعادت جميلة هدوئها، وأيقنت داخلها أن العالم الذي جاءت إليه لا علاقة للشياطين به؛ فلو أنهم أصحابه لما انتظروا كل هذا الوقت للانقضاض عليها والتخلص منها، مؤكد أنه عالم آخر، ومؤكد أن قاطنيه قوم مثلها، واستقر عقلها على ضرورة الحذر عند مواجهتهم، واصلت تقدمها نحو إحدى الأشجار التي حملت فروعها ثمارا تشبه ثمار الجوافة، لكنها كانت ثمارا حمراء اللون بعد أن بدأت تشعر بالجوع الشديد يقرصها، فمدت يدها في حذرٍ تلتقط إحدى الثمار التي أدنتها من فمها بذات الحذر، وهي تقضم قطعة صغيرة منها بأسنانها وتذوقها بلسانها، فلما وجدت طعمها حلوا مستساغا أخذت تأكل في نهمٍ، وقامت بقطف ثمرة ثانية وثالثة، شعرت بعدها بالشبع، ارتقت بعدها السلالم الموجودة أمام المبنى الضخم، وتوقفت على بعد خطوات من الباب الذي كان موصداً في إحكام، أخذت تدفع الباب في قوة أملا في أن يستجيب لها لكن دون جدوى.

وقفت بعدها لحظة تلتقط أنفاسها، وقد تذكرت ما حدث معها داخل الكهف والجدار الصخري، فعاودت النظر للباب في دقة حتى ارتطم بصرها بتجويف يقع بالجانب الأيمن من الباب، فدفعت يدها داخل التجويف، وهي تدفعها للداخل بقوة فتحرك مزلاج الباب، وهو يدفع يدها للخارج قبل أن يطلق الباب صريرا عاليا هو يُفتح على مصراعيه، وخطت جميلة داخل القصر، وشعرت بالباب يُوصد خلفها، لكنها لم تبالِ بذلك، كان أمامها بهو المبنى الضخم ينتهي بثلاث غرف ضخمة موصدة الأبواب، وعلى يمين الغرفة الأخيرة كان هناك سلم مصنوع من الحديد اللامع يرتفع لأعلى، الأمر الذي جعلها تدرك أنه هناك طابق ثان، وهو ما جعلها تُحدِّق في دهشة؛ فلم يكن مألوفا لديهم أن تكون هناك مبان مكونة من أكثر من طابق؛ فقد كانت مبانيهم بسيطة مسقوفة بجذوع النخيل، أما سقف هذا المبنى فقد أثار في نفسها دهشة أكبر؛ فقد كان مصنوعا من مادة لا تدري كنهها، كما كانت تتدلى منه مصابيح ضخمة متوهجة، كانت تنظر إليها في فزع، فقد كانت تظنها شموسا صغيرة كتلك التي هاجمت والدتها، أفاقت من تأملها في المكان علي وقع خطوات ثقيلة كانت تقترب منها، ونظرة واحدة منها رأته، كان عملاقا ضخم الجثة يشبه العمالقة الذين هاجموها قبل دخولها إلى الكهف، كان يقف أمامها تماما وقد رفع ذراعيه لأعلى، وهو يمسك بسيف ضخم لمع تحت ضوء المصابيح، قبل أن يهوي به نحو رأسها تماما .

*****

٦ ـ الصيد

باءت كل محاولات حسان والفرسان الثلاثة الذين بقوا معه نحو إعادة فتح مدخل الكهف الذي سدته الصخور التي تهاوت فجأة بالفشل، واستسلمت أجسادهم المكدودة المنهكة والتي كانت في أمسِّ الحاجة للراحة، فجلسوا على الأرض وهم يولون ظهورهم لمدخل الكهف، وقد أسندوا رؤوسهم وظهورهم للصخور التي غطت مدخله، وقال حسان هو ينظر إلى السماء متأملا النجوم والقمر الذي ألقى بأنواره على المكان، فأكسبه رهبةً وجلالا بعثا الخوف في قلبه : لم يعد أمامنا أيها الفتية سوى أن نصعد الجبل، ونمر للجانب الآخر عند مخرج الكهف لعلنا نجد السيد سلام وباقي رفاقكم .

كان يقولها وكلماته تقطر من الحزن والأسى على ولده زيد وسيده سلام بعد أن أيقن داخله من فقدهم، كان كل شيء يوحي بذلك، الكهف العجيب الذي ظهر فجأة، والصخور التي سدَّت مدخله وهي تتهاوى دون سابق إنذار، قاطعته عبارة أحد الفرسان الثلاثة، والذي كان قد نهض وهو يتحرك في حذر، وقد وضع سهماً في القوس الذي أمسك به في حرص وهو يقول: المهم أن نشبع جوعنا، ثم نبدأ في التحرك .

سال لعاب حسان، وهو يرى أرنبا بريا ضخما كان يقف على بعد عدة أمتار منهم، وقد أثارت عبارة الشاب حفيظته؛ فقد كان يشعر بالجوع يقرص معدته في قسوة، فقد مرت فترة طويلة وهم لم يتناولوا أي طعام، لكن ما مرَّ بهم من أحداث مريعة عاصفة أنساهم جوعهم، وانطلق السهم من قوس الشاب الذي شدَّ وتره في قوة، ثم تركه لينطلق في قوة، وأصاب السهم الأرنب البري الذي سقط صريعا على الفور، هلل الجميع في فرح، وقد ضمنوا الطعام، فنهض أحدهم وسار حتى وصل إلى مكان الأرنب ليلتقطه من أذنيه، ثم قام بإخراج السهم من موضع الإصابة عائداً إلى حيث يجلسون، في حين قام أخر بجمع بعض أغصان الشجر الجافة، وهو يرصُّها فوق بعضها في حرفية وبسرعة، والتقط الثالث حجرين صغيرين قام بحكهما ببعضهما فانطلقت شرارة من النار التي سرت في الأغصان الجافة التي سرعان ما تأججت بالنيران، وقام بوضع الأرنب البري فوقها والدماء الساخنة تقطر منه، وصعدت رائحة الشواء متسللة إلى أنوفهم، وما هي إلا دقائق معدودة حتى بدءوا في تناول وليمتهم في شهية، وما أن انتهوا من تناول الطعام حتى قال حسان: فلنبدأ على الفور في الصعود إلى سطح الجبل .

قالها وهو ينهض من مكانه واقفا، وقد أمسكت يديه بأحد البروز الصخرية، وبدأ تسلق الجبل، وقد تبعه الفرسان الثلاثة الذين سبقوه بسبب السن، فقد كان الفرسان أقوياء في مقتبل العمل مازال جسدهم مفعماً بالحيوية والنشاط يحملون سواعد فتية، كانت العملية شاقة ومتعبة فقد شعروا بالخدر يسري في أيديهم، وبعضلاتهم تكاد تتمزق، لكنهم كانوا يواصلون تسلق الجبل في إصرار وعزم، وأفلتت يد حسان أحد البروز الصخرية، وشعر بجسده يهوي إلى أسفل، لكنه شعر بيد أحد الشباب قد أمسكت بيده في قوة جعلته يشعر بالألم لتوقف جسده المفاجئ، وظل جسده يتأرجح في كل اتجاه إلى أن استعاد توازنه، فثبَّت قدميه في أحد النتوءات، وأمسك بيده الأخرى أحد البروز في قوة وهو يقول: شكرا يا فتي؛ فقد أنقذت حياتي .

قالها وهو يمسك بيده الأخرى التي تركها الفارس الشاب بعد أن اطمأن عليه قبل أن يقول: لا شكر على واجب يا سيدي .

واصل الجميع بعدها تسلقهم الجبل بهمة وقوة وسط صمت تام ساد المكان، وبعد عناءٍ وصلوا إلى سفح الجبل، فدفعوا أجسادهم لأعلى في قوة، ليستلقوا بعدها على ظهورهم، وهم يلتقطون أنفاسهم اللاهثة، والعرق يتصبب من وجوههم في غزارة جراء المجهود الكبير الذي بذلوه، قال أحد الشبان ويُدعى عمر، وكان طويل القامة مفتول العضلات أبيض الوجه: لا وقت لدينا لنضيعه .

قال حسان وهو ينهض واقفا: صدقت يا فتى.

قالها وهو يواصل سيره فوق سطح الجبل الذي كان يبدو مستويا ممهداً، وكأن يدا قامت بصنع ذلك، وتبعه الفرسان الثلاثة، وسرعان ما توقف الجميع وهم ينظرون إلى الجانب الآخر، والذي بدا خاليا من أي أثر للحياة، كانت مجموعة من التلال والهضاب، ظل حسان صامتا وهو يفكر في سيده وابنه الوحيد وفرسانه الشبان، وعقله لا يجد جوابا لما يحدث، ولا أين اختفوا؟

وقطع أحد الفرسان عليه تساؤلاته وهو يقول: سيدي، أرى أنه لا فائدة من بقائنا هنا .

قاطعه حسان غاضبا: وما الذي تريد منا فعله يا فتى؟

قال الشاب في هدوء، وهو ينظر لحسان بشفقة؛ فقد كان يُقدِّر فقدانه لولده الوحيد: سيدي، أرى أن نذهب إلى القبيلة، ونأتي في الصباح الباكر، ومعنا المزيد من الرجال، ولا يكون لنا همٌّ سوى إزاحة الصخور عن مدخل الكهف، ونواصل بعدها البحث عن سيدنا ورفاقنا .

أطرق حسان برأسه أرضا، وقد شعر بأنه لا جدوى من بقائهم، وبمنطقية تفكير الفارس فقال: حسنا لم يعد أمامنا سبيل آخر .

وبدأ الجميع رحلة الهبوط من الجبل، وعقل حسان مشغول بمصير ولده وسيده سلام .

****

كان سلام في موقف لا يُحسد عليه؛ فقد أحكمت الزهرة تكبيله جيداً بفروعها التي راحت تعتصر جسده في قوة وعنف، وبدأت أنفاسه تضيق، وأمامه كان أحد أغصان الزهرة ينتصب، وهو يستعد للغوص في صدره كحربة حادة، كان يوقن أن الموت آتٍ لا محالة، فأغمض عينيه وهو ينتظر المصير المحتوم، لكن سرعان ما هوى زيد بسيفه على ساق الزهرة في قوة وعنف، فندت شهقة ألم لم يكن يدري مصدرها، وهو يظن أنها ندت من فم سلام، ولم يكف عن توجيه ضرباته حتى نجح في اجتثاث الزهرة من جذورها، وشعر سلام بفروع الزهرة تتراخى من حول جسده، وتوقف السائل اللزج الذي كان ينزل على سترته ومنها إلى جسده، فيشعر بجسده يحترق، لم يكن يعلم أنها مادة كاوية تقوم الزهرة بإفرازها لشلِّ حركة خصمها، وسقط سلام أرضا وهو يحاول دفع الهواء إلى صدره بعد أن أفلتته الزهرة التي انكمشت قبل أن تذبل أوراقها التي كانت منذ لحظات خضراء يانعة، كان سلام يشعر بجسده يحترق، فنهض في صعوبة يساعده في ذلك زيد، وقام بخلع سترته في سرعة، وإلقائها أرضا؛ فقد أدرك خطورة السائل اللزج الذي أفرزته الزهرة فوق سترته، وقبل أن يخطو أحدهم خطوة واحدة، بدا أمامهم الكائن الهُلامي ذو الأهداب، والذي امتص منذ لحظات عظام رفيقهم تاركا إياه جسدا رخواً بعد أن فقد حياته، وهو يغادر المياه متجها نحوهم في بطء، كان ذا شكلٍ مريع مقززٍ دفع الخوف في نفوسهم، وهم يتخيلون أنفسهم يلقون نفس مصير رفيقهم، لكن جاء تحرك مهاب سريعاً، فقد تحرك على الفور، وأمطر الكائن بوابل من السهام التي اخترقت جميعها جسده، فأخذ يتلوى في عنف، وقد زاد من حركته، وهو يتجه نحوهم، وقد أطلت من عينيه نظرة غضب جمَّدت الدماء في عروقهم، ودون أن يبالي مهاب بذلك صوَّبَ سهمه في إحكامٍ قبل أن يطلقه ليخترق عين الكائن اليسرى التي انفجرت منها نافورة من الدماء لوثت المكان، والكائن يواصل سيره نحوهم، وهو يطلق فحيحا مرعبا قبل أن يصيب سهم آخر أطلقه مهاب في براعة عينه اليمني، وصار الكائن يمضي في تخبط بعد أن فقد بصره، وابتعد الجميع عن مساره، وواصل الكائن تقدمه ليصطدم بإحدى الأزهار

العملاقة التي التفت عروقها حوله في قوة، وقد غمر السائل اللزج جسده، فأطلق فحيحا حمل الألم.

وفي مشهد لم يستطع سلام ولا أحد من الفرسان نسيانه، أخذ حجم الكائن في الانكماش قبل أن تدنو الزهرة لتقوم بابتلاع جسده كاملا، ارتعد جسد سلام وهو يتخيل نفسه يلقى نفس المصير.

وصاح شهاب أحد الفرسان والذي كان يبدو كمَن فقد أعصابه قائلا: هيا لنسرع الخطى؛ لنغادر هذا المكان الملعون .

واصل الجميع المسير، وسلام يقول محاولا تهدئة روع شهاب: هدئ من روعك يا فتى .

لاذ شهاب بالصمت، فقد كان كل ما واجهوه يثير أعصاب أعتى الرجال، لكنه رغم ذلك لم يفت في عضدهم شيئا، وواصلوا سيرهم، كان الطريق ممتدا أمامهم، وبدا أمامهم مدخلا آخر قاموا باجتيازه في سرعة ودون تفكير، واختفى النهر والشجر والأزهار، وبدا يحف الطريق من الجانبين الصخور، وعلى بعد عدة أمتار بدا أمامهم عملاق ضخم الجثة أصلع الرأس، وقد غطى نصفه الأسفل إزار جلدي، بينما بدا صدره عارياً، كان مخيفا، فقد وقف في شموخ وهو يقهقه في صوت مرتفع ارتجت له جنبات المكان، كان يشبه كهنة قدماء المصرين، وقد سطعت رأسه تحت نور الشمس، وقد التفت حول ساعديه عشرات الأفاعي السامة التي ألقاها أرضاً، وارتجفت قلوبهم وهم يرون الأفاعي السامة، وقد بدأت الزحف نحوهم

****

كانت جميلة تبدو كفأر وقع في المصيدة، وقد فاجأها وجود العملاق الذي لم تكن تتوقع وجوده أبدا، كانت مفاجأة غير سارة لها على الإطلاق، لكنها لم تنتظر حتى يهوي بسيفه ليشطرها نصفين، وإنما قفزت في مرونة جانبا وهي تعدو مسرعة في اتجاه السلم، واستبد الغضب بالعملاق الذي أخطأت ضربة سيفه هدفها، فهوى السيف مصطدما بالأرض الصخرية مولدا شرارة قوية قبل أن يرتد في عنف نحو وجه العملاق الذي كان يمسك مقبض السيف جيدا، ولولا قوة ساعديه لحطم السيف رأسه، وقفز العملاق متجاوزا جسد جميلة التي كانت قد استلت سيفها، وهي تسرع الخطى نحو السلم، لكنها وجدت نفسها تندفع في سرعة نحو العملاق الذي تجاوزها بقفزته السابقة، قبل أن يقف وهو يمد يده الممسكة بالسيف نحوها، كانت تجد صعوبة في التحكم في حركتها، فلكل فعل رد فعل، وأدركت جميلة أن توقف جسدها أصبح مستحيلا

خصوصا بعد أن فاجأتها حركة العملاق الذي كانت ترتسم على شفتيه ابتسامة شامتة؛ فقد كان موقنا من أن سيفه سيخترق جسدها لتصبح جثة هامدة، لكن جميلة لم تكن فتاة عادية؛ فقد نشأت في بيئة أكسبتها الصلابة والمرونة والدهاء، لذا فقد أحنت جسدها الذي واصل اندفاعه في قوة، وعبرت بجسدها بين ساقي العملاق، واستدارت في سرعة، وقد غرست سيفها في ساق العملاق اليمني التي سالت منها الدماء، فأطلق صرخة غاضبة مدوية، وهو يستدير نحوها، وقبل أن تكتمل استدارته هوت جميلة بسيفها فوق يد العملاق الممسكة بالسيف في قوة في ضربات سريعة وقوية، وهي تلهث وقد بدا الرعب مجسدا على وجهها، وطارت كف العملاق الممسكة بالسيف الذي سقط أرضا، وتفجرت نافورة من الدماء من موضع الكف، وثار جنون العملاق الذي أخذ يزأر في حدة، وأطلقت جميلة ساقيها للريح، لكنها شعرت بجسدها يرتفع لأعلى، كما انتابها ألم شديد؛ فقد أمسكت كف العملاق السليمة بشعرها في قسوة، وهو يرفعها لأعلى قبل أن يقذفها لتصطدم بالجدار المواجه، والذي كان يبعد عنها خمسة أمتار في عنف، قبل أن تسقط أرضاً، وقد ندت منها آهة ألم، وهي تصرخ في رعبٍ؛ فقد كانت تشعر بالألم في كل خلية من جسدها، وسالت الدماء من رأسها، كانت تقاوم فقدان الوعي في استماتة، وقد بدا لها العملاق الذي كان يواصل سيره نحوها، وقد أمسكت كفه السليمة بالسيف الذي حمل نصله لها الموت .

*****

خرج فرسان القبيلة بكامل عدتهم وعتادهم خلف كبيرهم حسان، وتبعهم عدد كبيرٌ من أهل القبيلة حتى أنه يخيل للناظر أنه لم يبقَ بالقبيلة إلا النساء والعجائز، فقد نزل عليهم خبر اختفاء سيدهم كالصاعقة، كان الحزن يخيم على وجوههم، فلم يكن سلام مجرد قائد لهم، بل كان أبا وأخا لهم، كان الملهم يشاركهم أفراحهم وأتراحهم، كانوا يلهبون الجياد بسياطهم حتى تزيد من سرعتها، كانت الجياد تطوي الأرض حتى أنهم وصلوا خلال فترة وجيزة إلى أرض الواحة التي كان الهدوء يعمُّ أرجائها، وقد عادت إلى طبيعتها، وكأن شيئا لم يحدث بالأمس، وهو ما جعل الدهشة ترتسم على وجوه حسان وفرسانه الذين شهدوا كل ما حدث بالأمس، حسان الذي كان يشعر بالرهبة والخوف، وقد كان عقله يُجن وهو يعود أدراجه ومَن معه من رجال إلى القبيلة يجرُّ أذيال الخيبة بعد أن أعياه الأمر من التعب، فنهار كامل انقضى دون أن يجدوا أيَّ أثر للكهف، فقد كانت الجبال تقف شامخةً دون أن تجد عيونُهم الخبيرة أثراً لسيدهم .

****

٧ ـ الزلزال

كان منظر سلام وفرسانه صورة مثالية للرعب، وهم يحدقون في العملاق أصلع الرأس، والذي أطلق الحيَّات السامة على الأرض لتبدأ الزحف نحوهم، ووقف شامخا وهو يقهقه، وقف سلام صامتا لبرهة من الوقت، وهو لا يدري ماذا يفعل في هذه المعركة العجيبة التي يواجه فيها الحيَّات والثعابين، ثم تقهقر متراجعاً للخلف وقد ظنه الفتيان قد فقد أعصابه من الخوف، لكنه مال قائلا لمهاب في صوتٍ هامس: صوِّب السهام نحو عنق هذا العملاق .

قالها ثم عاد ليتقدم مرة أخرى، وهو يبرز سيفه محدثا العملاق: هل جَبُنتَ عن مواجهتي .

استشاط العملاق غيظا، وهو يستمع لتحدي سلام، لكنه ظل ثابتا، وهو يحدجه بنظرةٍ حملت الغضب، في نفس اللحظة التي نجح فيها خمسةٌ من الفرسان من تسلق الصخور بعيدا عن الحيات التي كانت تقترب من سلام ورجاله، وانطلق سهم من الخلف أصاب العملاق في جبهته، قبل أن يرتدَّ في عنف، ويسقط أرضا، وصرخ العملاق بصوتٍ هادرٍ، كاد يصمُّ آذانهم.

وقبل أن يتحرَّك العملاق نحوهم، أطلق مهاب سهما آخر اخترق عنقه مارا بقصبته الهوائية، وأخذ العملاق يلوِّح بيديه قبل أن يسقط على الأرض في عنف، وقد خمدت حركتُه تماماً، وانطلقت الحيَّات تهاجم سيدها في ضراوة، وهي تلدغ جسده في أماكن متعددة.

واستطاع سلام وباقي الفرسان تسلق الصخور والمرور عابرين المنطقة التي كان يتواجد فيها جسد العملاق والحيات التي انشغلت بجسد سيدها، وقفز الجميع أرضاً في الجانب الآخر من المكان، وهم يعدون في سرعة، وقد بدا أمامهم المكان وقد انتهى بجدارٍ صخري فقال زيد: يا إلهى المكان مسدود، سرعان ما تلحق بنا الحيات، إنها النهاية يا رفاق .

تقدَّم سلام نحو الجدار الذي كانت تُزينه نقوش غريبة، لا يدرك أيَّ معني لها، وأدنى أذنه منه، وهو يطرق الجدار بقبضة يده قبل أن يعتدل ويقول: الجدار ليس سميكا، ويبدو أنه خلفه فراغ أو مكان آخر.

قال مهاب محدثا سلام: ولكن كيف سنعبرُ إلى الجانب الآخر يا سيدي ؟ يبدو هذا الأمر مستحيلا !

كان سلام ينظر إلى الجدار في صمت، وعينه تفحص كلَّ شبرٍ فيه دون أن يبالي بعبارة مهاب، ولفت انتباهه نقشٌ بارزٌ لقبضةٍ مضمومةٍ هزَّها بيده، فوجدها تتحرك فضمَّ قبضتها ليضعها

فوق النقش البارز، وهو يدفع قبضته إلى الداخل، وتحرّك النقش، ومعه تحركت قبضة سلام لتخترق الجدار قبل أن تعود قبضته مرة أخرى خارج الجدار بعد أن دفعها شيء مجهول للخلف، وبدأ الجدار أمام أعين الجميع في التحرك من الجانبين، كان الجميع يحدقون في انبهار، ثم سرعان ما اجتازوا الجدار إلى الجانب الآخر الذي بدا أمام أعينهم، ووقف سلام وهو يحدق أمامه في إمعان وذهول دفع الفرسان للنظر إلى حيث يحدق بنظره، وأمامهم بدا طريقا مكشوفا تتوسطه حفرة عميقة، فقال جاسر أحد الفرسان الشبان: يا للهول! كيف سنتمكن من عبور مثل هذه الحفرة التي تلتهم الطريق بأكمله؟

قال زيد: ليس مهما كيف نعبرها؟ ولكن ماذا تخبئ لنا هذه الحفرة داخلها هذا هو المهم يا صديقي؟

كان الفرسان ينظرون سلام الذي اقترب من الحفرة حتى صار على مقربة من حافتها، وهو ينظر داخلها وقد انعقد حاجباه في دهشة، فأسرعوا الخطى حتى أصبحوا أمامها، وعقدت الدهشة ألسنتهم فعجز الجميع عن الكلام، وما أثار دهشتهم السلم الذي كان يتوسط الحفرة، والذي كانت درجاته تتجه لأسفل، كان سلما حلزونيا فقال زيد: يا للهول مَن الذي قام بحفر مثل هذه الحفرة العميقة في مثل هذا المكان؟ ومَن الذي قام بعمل مثل هذا ؟

قالها وهو يشير إلى السلم الذي لم يكونوا يعرفونه بعد، وقف الجميع صامتين، وهم يحدقون في الحفرة محاولين كشف الأعماق، ومعرفة ما يحتويه باطنها دون أن يحاول أحد الإجابة على السؤال الذي كانوا جميعا يتمنون معرفة إجابته، أفاق الجميع على صوت الرياح التي بدأت تضرب وجوههم، وقد شعروا بشيء ضخم يحجبُ عنهم الضوءَ، وقبل أن تتجه رؤوسهم لأعلى تناهي إلى مسامعهم صوتُ صرخةٍ مُدوية أطلقها جاسر الذي شعر بكلابتين قويتين تجذبانه لأعلى، وقد أمسكتا بسترته في قوة، وقد بدأ يشعر بجسده يرتفع لأعلى، وهو يتمايل في كل اتجاه، كان طائرا ضخم الجثة وقد فرد جناحيه اللذين يزيد طولهم عن الأمتار الثلاثة، ويرفرف محلقا لأعلى محدثا موجةً من التخلخل في الهواء، حتى أن سلام وباقي فرسانه استطاعوا الحفاظ على توازنهم في صعوبة، وقد أمسكت مخالبه بسترة جاسر في إحكام ..

وصاح سلام: يا للعنة أي أرض ملعونة تلك التي وطئتها أقدامُنا؟

قالها وهو ينظر إلى الطائر العملاق الذي بدا مرعباً في نفس اللحظة التي استل فيها سيفه من غمده، ووجهه نحو الطائر الذي بدأ التحليق لأعلى، ثلاث ضربات متتالية أصابت سترة

جاسر، بينما أصابت الضربة الرابعة مخالب الطائر العملاق الذي استشاط غضبا، بعد أن فقد فريسته، فقد سقط جاسر أرضا بعد أن مزق سيف سلام ذلك الجزء من سترته، والذي كانت تمسك به مخالب الطائر الذي واصل طيرانه لأعلي، وقد أدرك الجميع هدفه، وتبادل الجميع نظرةً واحدةً قفزوا بعدها داخل الحفرة في نفس اللحظة التي انقضَّ فيها الطائر عليهم، فأصاب الفراغ

فجُنَّ جنونه، وهو يحدق فيهم بنظرات غاضبة، وهو يحوم حول الحفرة محاولاً دفع رأسه داخلها، فلم تكن الحفرة تتسع لمرور جسده، ونزل سلام والفرسان الشبان درجات السلم هابطين لأسفل حتى يصبحوا في مأمنٍ من ذلك الطائر الذي حلَّق مبتعدا، وهو يطير مرتفعا لأعلى، وقف الجميع يلتقطون أنفاسهم وجاسر يقول: يا للهول! ما هذا الكائن البشع؟

قال سلام: أقسم أنني أول مرة أرى مثل هذا الشيء و..

قبل أن يكمل سلام حديثه شعر الجميع بالظلام يُخيِّم على المكان، فنظروا إلى أعلى، فبدا واضحا لهم الطائر العملاق الذي كان يحلِّق فوق الحفرة، وقد أمسكت مخالبه بصخرة ضخمة يعجز عن حملها ثلاثة من الرجال الأشداء، وامتقعت وجوههم في رعبٍ بعد أن أدركوا هدف الطائر جيدا، فقد جاء لينتقم منهم، كما أدركوا أنه سيترك الصخرة لتهوي فوق الحفرة لتسحق أجسادهم سحقا

****

لم ينتظر سلام وفرسانه الطائر العملاق حتى يقوم بإلقاء الصخرة نحو الحفرة، لكنهم أطلقوا سيقانهم للريح، وارتقوا درجات السلم الحلزوني هابطين لأسفل بسرعة كبيرة، وهوت الصخرة داخل الحفرة لترتطم مخترقةً السُلم الذي تهشمت درجاته في عنف، قبل أن تهوي أرضا وهي تندفع للأمام محطمةً قوائم السلم الخلفية، ووجد الفرسان أنفسهم يهون لأسفل بعد أن تحطم السُلم تماما، فقفز الجميع في خفة قبل أن ترتطم أجسادهم بالأرض، كانت الآلام التي سرت في أجسادهم رهيبة، فظلوا جالسين على الأرض يلتقطون أنفاسهم، وهم ينظرون لأعلى نحو الفتحة، لكن الطائر كان قد اختفى تماما عن أنظارهم فقال زيد: لقد رحل هذا الطائر البغيض.

قال جاسر: لا اعتقد ذلك و..

قبل أن يكمل عبارته فوجئ الجميع بعودة الطائر، وهو يحمل صخرة أكبر هذه المرة، فنهض الجميع وهم يعدون نحو الممر الممتد أمامهم، وما أن مرَّ جسدُ آخرهم حتى فوجئ الجميع بسقوط الصخرة التي ألقاها الطائر، والتي أصدرت دوياً كبيراً قبل أن تصطدم بمدخل الممر الذي تهاوى جزء منه، قبل أن ترتدَّ في عنفٍ للخلف مرة أخرى قبل أن تستقر على أنقاض السلم الحلزوني، وشعر سلام وفرسانه بالأرض تهتز من تحت أقدامهم، فقال وقد أدرك هدف الطائر العملاق، وهو يسرع الخُطى داخل الممر الذي بدت المشاعل على جانبيه، وقد أحالت ظلام الليل إلى نهار: أسرعوا أيها الفتيان قبل أن يلحق بنا هذا الطائر المفترس.

كان الفرسان يسرعون الخُطى بالفعل، والممر يضيق حتى صار لا يتسع إلا لعبور شخص واحد، ومن خلفهم انطلق صوتُ فحيحٍ مرتفع وقعت له قلوبهم بين أقدامهم، فنظرة واحدة خلفهم جعلتهم يدركون صدق حدس سلام، فعند أول الممر كان الطائر العملاق يقف وهو يمد رأسه داخل الممر، كان يحاول اللحاق بهم، لكن محاولاته باءت بالفشل؛ فقد كان الممر ضيقا لا يتسع لمرور جسده الذي انحشر بين جدران السرداب، فعجز عن التراجع للخلف، فأخذ يطلق صوته المزعج، ونظرة الغضب تطلُّ من عينيه، وهو ما دفع جاسر للقول: إنه ليس بطائر عادي، إنه شيطان .

قال سلام: ما الذي يدفعك لقول مثل هذا يا فتي؟

أجاب جاسر وهو يمسك بيديه مشعلا انتزعه من جدار الممر وهو يستدير للعودة للخلف: انظر إلى ما فعله، فأيُّ طائرٍ يفكر في الانتقام؟ بل وكيف قدر علي حمل مثل هذه الصخرة التي ألقاها عبر الحفرة التي كانت بالجبل قاصدا سحقنا .

قال زيد: بل والأدهى أنه لما فشل في ذلك عاود الكرة أكثر من مرة، حتى نجح في توسيع الحفرة، واستطاع المرور عبرها قاصدا ملاحقتنا.

صمت لحظة ثم قال: ’نه شيطان، إنه ليس بطائر عادي .

سرت الرجفة في أجسادهم، وسلام يقول لجاسر الذي كان قد اقترب من الطائر: عُدْ يا فتي لا وقت لدينا لنضيعه .

لكن جاسر لم يبالِ بكلمات سلام، وواصل سيره نحو الطائر الذي خفتت حركته، وسكن جسده تماما، وقبل أن تمتد يدُ جاسر الممسكة بالشعلة نحو وجه الطائر، نفَّث الطائر في قوة في وجه جاسر قبل أن تنطلق من فمه كتلة من اللهب أصابت وجه الأخير الذي صرخ من الألم،

وقبل أن يتحرك متراجعا للخلف، انطلقت كتلة ثانية وثالثة من اللهب أصابت صدر جاسر وأردافه، واشتعلت النيران في سترته، وجسده، وفاحت رائحة الشواء، وجاسر يتلوَّى من الألم، وهو يطلق الصرخات قبل أن تهمدَ حركته تماما، بعد أن تفحَّم جسدُه، وأصبح جثة هامدة، لم ينتظر سلام ومَن معه معرفة مصير جاسر، فقد أدرك الجميع هدف الطائر الحقيقي، الطائر الذي أخذ يطلق كرات اللهب في اتجاههم، فأخذ سلام ورفاقه يعدون في سرعة، وقد تحوَّل المكان خلفهم إلى جحيمٍ ألهبت نيرانُه ظهورهم، ولاحت لهم نهاية الممر، فأمامهم مباشرة كان الممر ينتهي بجدار صخري، راحوا يفحصونه بعيونهم بسرعة، وراحت أيديهم تلمس الجدار في كلِّ موضع، وقد سال العرقُ من وجوههم، وأجسادهم في غزارة، فلقد أحالت النيران المكان إلى جحيم، وشعروا بأنفاسهم تضيق، وبدأ الجميع يسعلون في قوة، وقد بدأوا يشعرون بالاختناق، وأمام سلام بدا نقشٌ بحجم كف اليد في الجدار المقابل، فقام بضغطه بيده التي غاصت للداخل قبل أن يدفعها شيء مجهول للخلف، وانطلق صوت صرير مرتفع، وانشق الجدار إلى نصفين قبل أن يفتح ليدرك الجميع أنه باب المخرج، ودون انتظار قفزوا جميعا إلى الجانب الآخر، وأسندوا ظهورهم للجدار المقابل، وهم يلتقطون أنفاسهم، وينظرون حولهم فأمامهم بدا ممر آخر يشبه الممر السابق تماما، وقد اصطفت على جانبيه المشاعل، فقال عمر وهو ينظر إلى حسان: يا للهول لقد مات جاسر، لقد تمكَّن منه هذا الطائر الملعون.

وقبل أن ينطق سلام بحرف واحد، اندفع الشاب الثاني وكان يدعي ياسر: أقسم بأنه لو سنحت لي الفرصة لأقتلنَّه شرَّ قتلة.

قال سلام: المهم أن نخرج من هنا سالمين يا فتى.

قالها وجميعهم ينظرون إلى الباب، الذي بدأ يُوصد أمام أعينهم في بطء، وتنامى إلى أسماعهم صوت فحيح مرتفع يعرفونه جيدا، وأمامهم ظهر الطائر الذي كان قد تخلى عن طبقة الجلد الخارجية، والريش حتى يتمكن من المرور عبر السرداب، وقد صار شكله أكثر بشاعة من ذي قبل، كان يحاول دفع جسده للعبور من الباب الذي أوشك جانبيه من الالتحام ببعض، ونجح الطائر في دفع رأسه ونصف جسده، ودون أن ينتظر انطلق سلام يعدو عبر الممر، ولحق به زيد وباقي الفرسان، وجُنَّ جنون الطائر الذي عجز عن دفع جسده كاملا، فأخذ يُطلق كتلَ اللهب تجاههم، وشعر زيد بالنار تسري في سترته، ولهيبها يلفح ظهره، لكنه واصل عدوه في سرعةٍ محاولاً الابتعاد قدرَ الإمكان عن كتلِ اللهب التي كان يقذفهم بها الطائر، واستغل ياسر الذي انكمش

جانبا في الركن الآخرِ للممر انشغال الطائر بإطلاق كرات اللهب نحو رفاقه، فأمسك شعلة انتزعها من الجدار المقابل قبل أن يندفع في سرعة تجاه الطائر وهو يدفعها في عينه في قوة وهو يصرخ: خذ هذه فأنتَ تستحقها .

وأطلق الطائر فحيحاً مرعباً رددت صداه جنبات الممر، ووقع قلب ياسر بين قدميه فقد أيقن أنه ميت، وأمام عينيه بدا جسد الطائر في الاهتزاز والتموج وتشكل حتى اتخذ هيئة ثعبانٍ ضخم.

كان في هيئته هذه يبدو أشبه بطائر العنقاء الأسطوري، كان أشبه بطائر خرافي يرفض الموت، لكنها غريزة الحياة يا عزيزي، تلك التي تدفع في الجسد المزيد من الأدرينالين فتُكسب الإنسان قوة خرافية لم يعتدها في نفسه من قبل، لذا فقد فاندفعت يد ياسر الأخرى لتمسك بشعلة أخري غرسها في جسد الطائر الذي تصاعدت منه رائحة الشواء، قبل أن ينكمش جسده تماما، وقد اشتعلت فيه النيران لتلتهمه قبل أن يوصد الباب تماما، وهنا أطلق ياسر ساقيه للريح، وانطلق يعدو في سرعة؛ محاولا اللحاق برفاقه وسيده، وأثناء عدوه وجد سترة رفيقه عمر، وقد صارت لكومة من الرماد بعد أن التهمتها النيران التي خمدت بموت صاحبها، ثم توقَّف بعد أن رأى سيده سلام ورفاقه أمامه، سلام الذي اندفع ليحتضنه قائلا: لقد ظننت للحظات أننا فقدناك يا فتى .

قال ياسر: لقد كان شيئا فظيعا يا سيدي، لقد ظننت أنني هالك لا محالة .

قال سلام الذي كان يفكر في ابنته، وقد انشغل عقله بالمصير الذي تواجهه: هيا لنكمل المسير؛ فمؤكد أن هذا المكان الملعون محفوف بالمخاطر التي لم نقابل منها إلا القليل .

قالها وهو ينتزع شعلتين أمسك كل واحدة منهما بيد، وهو يواصل سيره عبر السرداب الذي بدا أكثر اتساعا من الممر السابق، وحذا الآخرون حذوه، كانت تزين جدران الممر رسوم ونقوش غريبة لم يدرك أحدٌ منهم كنهها، لكنهم كانوا ينظرون إليها في دهشة، كما كانت النيران التي تهب من المشاعل المنتشرة تلقي بظلال غريبة على أرض السرداب، فأضفت على المكان غموضا ورهبة، وانتهي بهم المطاف، ووصلوا لنهاية السرداب، فدفع سلام بإحدى الشعلتين ليمسك بها عمر في حين انهمك هو في فحص الجدار الصخري في دقة وتنهَّد في ارتياح بعد أن رأى النقش السحري الخفي الذي كان يصعب رؤيته في سهولة، وضغطت كفه النقش، وغاصت يده داخل الجدار، ثم ما لبث أن عادت يده للخارج مرة أخرى بعد أن دفعها شيء مجهول، وانطلق صرير الباب، وبدأ

جانبا الجدار يُفتحان، وخطوا جميعاً خارج السرداب ليجدوا أنفسهم داخل بهوٍ كبيرٍ، فساروا يقطعون المكان بخطى واسعة، ولاحت التفاتة من سلام الذي كان يسبقهم للخلف، فشحب وجهه وهو يرى الباب في طريقه لغلق المخرج، وصار يهذي بكلماتٍ غيرَ مفهومةٍ، وهو ما دفع عمر وياسر للالتفات للخلف، وتسمَّرت أجسادُهم عن الحركة، وشحبت وجوههم حتى صارت تحاكي وجوه الموتى؛ فقد كان ما يرونه مذهلا،

وتسمَّر ياسر في مكانه، وقد انطلقت من حلقه صرخة مفعمة بالرعب، فأمام عينيه بدا ذلك الطائر البشع والذي ظنَّ أنه استطاع القضاء عليه، يحلق فوق رؤوسهم، وكأنه انبعث من موته، وخلفه عشرات الطيور التي تشبهه .

****

وقف ياسر وهو يرتجف قبل أن يقول بصوتٍ حملت نبراته الرعب: كيف ذلك؟ أقسم أنني قتلته بيدي هاتين . قالها وهو يلوح بيديه لأعلى، لم يجد ياسر جوابا لسؤاله، بينما التفَّ الفرسان خلف سلام، الذي كان يقف مذهولا، وهو يحدِّق في رعب في الطائر العملاق، وقد تبعه عشرات من الطيور التي كانت تشبهه تماما، وقد أيقن أي مصيرٍ ينتظرهم، مؤكد أن الموت حرقا هو المصير الذي ينتظره وفرسانه، بل وليت أن الأمر ينتهي عند ذلك الحد، بل كان هناك شعور كبير لديه بأنَّ هذه الطيور ستقوم بتمزيق أجسادهم أحياء قبل أن تلهبهم بنارها، ارتعد جسد سلام عندما ذهب بخياله إلى هذا الحد، فهوى غارسا نصل سيفه في الأرض في غضب، وبدلا من أن يغوص السيف فيها، شعر سلام بالسيف يرتد في عنف، وقد ارتطم بشيء مطاطي، وانطلق نورٌ أغشى بصره، وشعر بصاعقة تسري من السيف إلى جسده الذي ارتجف في عنف، وقد أفلتت يده السيف قبل أن يفقد اتزانه ليسقط أرضا، والفتيان يحدقون فيه، وقد نسوا أمر الطيور المتوحشة، وقد حملت نظراتهم الكثير من التساؤلات، ولكن ثارت الطبيعة، وارتجت الأرض تحت أقدامهم، وبدأت الصخور تتساقط من أعلى، وحلَّقت الطيور بعيداً؛ لتنجوا بنفسها، كان زلزالا رهيبا، مادت الأرض تحت أقدامهم، وفقد الجميع توازنهم، وسقط الفتيان أرضا ليلحقوا بسلام، كانت أجسادُهم تهتز؛ فقد كانت الأرض ترتجُّ في قوةٍ وعنف، وامتلأ المكان بالغُبار، وتشبع الهواء بالأتربة، وانشقت الأرض تحت أجسادهم، وهي تواصل اهتزازها في عنف، كان الأمر يبدو لهم غريبا؛ فلم يكونوا يعرفون الزلازل، وهوت أجسادُهم لأسفل في سرعة رهيبة، وعلى ارتفاع خمسة أمتارٍ بدا لهم سرداب آخر كانوا يهبطون نحو أرضيته، وتوقف الزلزال،

واختفى الثقب الذي خلَّفه بعد أن سدته الصخور التي كانت تتساقط، وواصلت أجسادهم هبوطها لأسفل في سرعة بعد أن قام كلُّ واحدٍ منهم بتعديل وضعه، وثنى سلام ركبتيه، وهو يصطدم بالأرض ممتصاً صدمة السقوط، وترك جسده يتدحرج على الأرض في مرونة إلى أن توقف تماما، وحذا الفرسان حذوه ..

ساد الصمت المكان للحظات قبل أن ينطق سلام قائلا: هل الجميع بخير يا رجال؟

أتاه صوت عمر خافتا، وهو يقول: حتى الآن يا سيدي .

وقال ياسر: يا لها من ليلة ليلاء، لا تريد الانتهاء .

اطمأن سلام إلى سلامة الفرسان، فنهض في صعوبة، وهو يشعر بعظامه تئنُ من الألم، تبعه الجميع وهو يواصل سيره لمسافة قصيرة بدا بعدها نهاية السرداب، ووقف سلام يتأمل الجدار الصخري الممتلئ بالرسوم والنقوش الغامضة، وبدا أمام عينيه نقشٌ بارزٌ قام بدفعه بكفه في سرعة، ثم تراجع للخلف، وانفتح الباب وخطا الجميع للجانب الآخر، وأمام ناظريهم بدا عالما آخر تحيط به الأشجار من كلِّ جانب، وبدت مبانٍ ضخمة شاهقة الارتفاع، تملأ المكان الذي كانت تغمره الأنوار التي لم يكونوا يعرفون مصدراً لها، ومن خلفهم عاد الجدار إلى طبيعته، وتقدم سلام قائلا، وهو يواصل سيره: هيا أيها الفتيان، سنواصل المسير.

تبعه الجميع في صمتٍ، لم يكن يقطعه سوى صوتِ خطواتهم التي كانت تدبُّ على الأرض،

لم يكن أحدٌ منهم يدري كم مرَّ من الوقت، وهم يواصلون السير دون توقف، وتوقف سلام أمام مبنى شاهق الارتفاع، وجلس الجميع يلتقطون أنفاسهم، فقد بدأ التعب يعصف بأجسادهم كما بدأ الجوع يقرصهم؛ فلم يكن أمامهم أيُّ مصدر للطعام، كما جعلتهم تجربتهم السابقة مع الزهرة المتوحشة يخشون الاقتراب من الأشجار المحيطة بالمبنى، والتي كانت تتدلى منها ثمارٌ غريبة الشكل، ووقف سلام برهة ينظر في جوه الشبان الذين استرخت أجسادُهم، وقد بدا التعب واضحا على قسماتهم، كما كان يدرك أن الجوع سيؤثر بشكلٍ سلبي على إتمام رحلتهم في البحث عن ابنته والخروج من هذا المكان الملعون، والذي بدا له مرتعا للشياطين وأعوانهم، ولأنه القائد فقد كان عليه هو التحرك والتفكير في حلِّ مثل هذه المشكلة التي تواجهه، لذا فقد تحرَّك في حذرٍ نحو إحدى الأشجار، ومدَّ يده ليقطف إحدى ثمارها في سرعة، وهو يتوقع أن تهاجمه الشجرة كما حدث مع الزهرة المتوحشة، والتي كادت أن تودي بحياته، لكن شيئا من ذلك لم يحدث.

كان الشباب يراقبونه في صمت، وقد أدنى الثمرة من فمه، وهو يقضم جزءاً صغيراً منها، أخذ يأكله في بطء، ولما بدا له الطعم مستساغا أكمل أكل الثمرة في نهم، أخذ يقطف الثمار وهو يلقيها نحو الشباب قائلا: لقد وجدنا الطعام يا رفاق .

نهض الشباب في حيوية، وكأنَّ أرواحهم رُدَّت إليهم مرة أخرى، فأخذوا يقطفون الثمار، ويلتهمونها في شراهة حتى بدأ الشعور بالشبع يتسلل إليهم، ارتقى بعدها الجميع درجات السلم التي كانت أمام المبنى الضخم، ووقف سلام أمام الباب المُوصَد في أحكام؛ كان يبحث عن أيّ نقشٍ بارز، وبعد عناء وجد ما كان يبحث عنه، فدفعه بيده للداخل، وانفتح جانبا الباب في بطء، وخطا الجميع داخل المبنى، ليجدوا مفاجأة لم يكونوا يتوقعوها أمامهم .

*****

كان الموت آتٍ لا محالة؛ فجميلة ترقد على الأرض، والدماء تسيل من رأسها، الرؤية مشوشة أمامها، العملاق يواصل تقدمه، وقد أمسكت يده السليمة بالسيف، بينما كانت يده الأخرى تنزف في غزارة، فكان يسرع الخطى، وقد استبدت به الرغبة في الانتقام، وهو يرمق جميلة بنظرات غاضبة، صرخة مدوية انطلقت تدوي في أرجاء المبنى الضخم، دفعت العملاق للالتفات للخلف في سرعة وعنف، وقبل أن يقدم العملاق على اتخاذ أي حركة انطلق سهمٌ أطلقه زيد في مهارة ليخترق عنق العملاق الذي أطلق حشرجة مزعجة، قبل أن يهوي جسده جثة هامدة ليصطدم بأرضية المبنى في عنف، وقد همدت حركتُه تماما، وبدت أمامهم جميلة التي كان يحجبها جسد العملاق عنهم، جميلة التي لم يكونوا يعرفون بأمر وجودها، وهم يبادرون بمهاجمة العملاق إعمالا لقاعدة الدفاع خيرُ وسيلةٍ للهجوم، كانت جميلة تبدو ساكنة الحركة، وقد همدَ جسدُها تماما؛ فقد كانت فاقدة الوعي، واندفع سلام نحو ابنته الوحيدة في سرعة، وهو يحتضنها في لهفةٍ، وقد وضع رأسها على فخذيه، بعد أن جلس بجوارها على أرضية المبنى، وهو يحاول منع نزيف الدماء التي تسيل من رأسها دون جدوى، وتقدم زيد نحوه وهو ينحني ليفحصها بعد أن خلع الجزء العلوي من سترته ممزقا إياه لشرائحَ قبل أن يقول: دعْ عنك ذلك يا سيدي، إنها مهمتي .

قالها وهو يستخدم الشرائح في تجفيف دمائها بهدوء، وفي إعياء فتحت جميلة عينيها بعد أن استردت وعيها، وقالت وهي تشعر بألم شديد: أين أنا؟ من الذي أتى بي إلى هنا ؟

أجاب والدها قائلا: اطمئني يا بنيتي، أنتِ في خير.

قالها وهو يدنو من وجهها ليطبع قبلةً حانيةً على خدها، وهو يقاوم دمعة ساخنة كانت تلمع بعينيه، وكانت جميلة تحدِّقُ في زيد الذي كان يضمدُ جراحَها في مهارة وسرعة، دون أن ينطق بحرف واحد، إنها تذكر أنها رأته من قبل، كان إحساس داخلي ينبئها بأنها تعرفه جيدا، شعرت بالارتياح نحوه، وكان زيد يواصل تضميد جراح رأسها، والتي كانت سطحية، وبعد أن توقف نزيف الدماء فقام بلفِّ بعض الشرائح الأخرى حول جُرحِ رأسها بأيدٍ مرتعشة؛ فقد خفق قلبُه الذي تزايدت دقاته، هي المرة الأولى التي كان يراها فيها عن قرب، كان يسمع عن جمالها الأخَّاذ، لكنه لم يكن يتخيل أنها فاتنة، كان يتخيل أن الناس تبالغ في وصفها، الآن أدرك أنهم لم يحسنوا الوصف، وإنهم بخسوها حقها، حتى أنه لم يحوِّل بصره عنها، لكنها كانت تنظر إلى والدها، وقد استعاد عقلُها كلَّ ما مرَّ بها، وتذكرت زيد وهي تقول لنفسها: إنه زيد ابن كبير الفرسان.

قاطعها صوت والدها قائلا: بنيتي هل أنتِ بخير؟

لم يجد جوابا منها، فقد أغمضت جميلة عينيها؛ بعد أن شعرت بالأمان فور رؤيتها له، وغطت في نوم عميق؛ فقد كان جسدها يئن من الألم، كانت خلايا مخها تصرخ طالبةً الراحة التي افتقدتها في الساعات الماضية، والتي كانت لا تستطيع فيها التقاط أنفاسها، كانت الأحداث تتطور بسرعة معها، وأخيرا جاء والدها ليزودَ عنها، فألقت كل ما بها من مشاعر الخوف والرعب بعيدا؛ فقد شعرت بالسكينة والطمأنينة، فقد كانت ككلِّ الفتيات تبحث عن رجلٍ لتحتمي به، وكان والدها هذا الرجل ..

وظل سلام ينظر إلى وجهها لحظاتٍ قبل أن يقول لنفسه: كم تشبهين والدتك الحبيبة .

وسمح لدمعة شاردة أن تفرَّ من عينيه لأول مرة في حياته، بعد أن اطمأن إلى نومها، وإلى عدم وجود أحد بالمكان بعد انصراف الفتيان لاستكشاف المكان، فقد كان من المحرمات في عرفهم أن يذرفوا دموعهم مهما لاقوا من مصاعبَ ومتاعبَ، حتى في سكرات الموت؛ فقد كانوا يعتبرون الدموع نقطة ضعفٍ كبيرة في حياة الرجال، فليس مسموحا لهم أن يعبروا عن مشاعرهم وآلامهم، كان سلام قد استبدَّ به الحنين، كم كان يتوق إلى رؤياها، كم كان يتمنى وجودها بجانبه، ظلت صورة أميرة أمامه، كان شريط الذكريات يمرُّ به في سرعة، كان يراها وهي تضحك في دلال، فهو لا يزال يذكر كلَّ شيء بينهما كأنه لم يمضِ عليه سوى لحظاتٍ قليلة،

وحرَّك عثوره على ابنته في هذا المكان الغريب، وكل ما واجهه من أحداث غريبة وحوادث غامضة لا يجد لها تفسيرا، ولا يعرف من وراء كل ما واجه، وداخله كان يشعر ببصيصٍ من النور

دفع الأمل داخله، الأمل في العثور على زوجته ورفيقته أميرة، وداخل عقله تردد سؤالٌ أصبح يلحُّ عليه في إصرار، هل سيعثر على زوجته مرة أخرى؟

*****

٨ـ اللقاء

فحص سلام المبنى العملاق بعينيه جيداً، بعد ان اطمأن إلى ابنته التي كانت تغط في نوم عميق، بعد كل ما لاقت من متاعبَ في رحلتها، وأشار إلى زيد ليساعده في حملها؛ ليضعها على أريكة قريبة منهم، قبل أن ينظر إلى الفرسان، وهو يشير إلى خمسة منهم قائلا: مهاب لتبقَ برفقة هؤلاء الفرسان الخمسة لحماية جميلة .

انفصل الفرسان عن باقي رفاقهم، وهم يحيطون بجميلة إحاطة السوار بالمعصم متخذين وضع الاستعداد، بينما أشار سلام إلى ثلاثة آخرين قائلا: أنتم أيها الفرسان فلتسبقونا إلى الطابق الثاني؛ ربما وجدتم هناك المخرج، أما أنا وزيد فسنذهب لتفقد الغرف الثلاث الموجودة بالطابق الأرضي التي تتوسط المبني .

قالها وقد أسرع الفرسان الثلاثة يرتقون درجات السلم في سرعة منفذين تعليماته على الفور، بينما انطلق هو وزيد نحو الغرفة الوسطى، وهو يدرك أنه لا يفتش المبنى بحثاً عن مخرج كما قال لفرسانه، لقد كان يبحث عن رفيقة عمره، عن أميرة التي تجدد لديه الأمل في لقائها، لا يدري ما الذي دفع ذلك الشعور القوي داخله بأن لحظة اللقاء قد اقتربت، كان مستغرقا في أفكاره حتى وجد نفسه يقف أمام الغرفة التي كان زيد يدقق النظر بحثا عن النقش البارز الذي يفتح بابها كما اعتادوا، ووقف خلفه في تحفزٍ، وزيد يواصل بحثه وهو مضطرب القلب، وقد اختلجت مشاعره، زيد الذي كانت صورة جميلة لا تفارق خياله لحظة، لقد أسرته بجمالها وفتنتها الطاغية، كان يراوده شعورٌ غريبٌ، كان يتمنى العودة إلى حيث تجلس؛ لينعم بالقرب منها، كان هناك شيء خفي يجذبه إليها، كان يشعر بأن سهماً سحرياً أصاب قلبه فجعله هائماً بها لا يستطيع التفكير في سواها، لقد وقع في حبها، لقد أصبح متيماً بها، لقد تحركت مشاعره التي ظن في وقت من الأوقات أنها مشاعر جافة لا يمكن أن تستيقظ من ثباتها أبداً ..

انطلقت صرخةٌ مدويةٌ لتبدد الصمتَ الذي ساد المكان، لتنتزعه من مشاعره الفيَّاضة، وهو يبادل سيده سلام النظرات، وقد أوجس قلباهما خيفة، واندفع الاثنان نحو السلم المؤدي إلى الطابق الثاني الذي انطلقت منه الصرخة، قال زيد الذي كان يواصل صعوده نحو الطابق الثاني، وقد التقت عيناه بعيني جميلة التي أيقظتها الصرخة من نومها: لا تشغل بالك يا سيدي سنكون بخير.

كان يشعر بدقات قلبه تزيد، كان لا يفكر في الخطر المحيط بهم من كل جانب، والذي يوشك أن يلقاه بعد لحظات قليلة، كان مشغولا بها، بنظرتها الطويلة التي رمقته بها، والتي شعر بها كأنها سهامٌ اخترقت قلبه، وغرست حبها فيه، أفاق على صوت سلام، وهو يقول في ذهول: عجبا لا يوجد لهم أثر بالمكان .

قال زيد الذي أخذ يتأمل المكان الذي كان يبدو هادئاً: عجبا أين ذهبوا ؟

صمت لحظةً، وهو يتأمل المكان جيدا، كان المكان عبارة عن صالة صغيرة وحجرة واحدة تحتل باقي مساحة المبنى، وقد توسَّط هذه الحجرة بابٌ كبير سبقه سلام إليه، وعينه تبحث عن أيِّ نقشٍ بارز في سرعة وهو يقول: ربما كانوا داخل هذه الغرفة .

ووقعت عيناه على النقش البارز، فاندفعت يده تضغطه في سرعة، وبدأ صوت صرير الباب وهو يُفتح يتنامى إلى أذنيه، ومن خلفه انطلقت صرخة أخرى تدوي في المكان، واستدار في سرعة للخلف نحو مصدر الصرخة، وكان المكان خاليا تماما، لقد اختفى زيد، لم يعد له أي أثر بالمكان، كاد عقله يُجن، أين ذهب ؟ لقد كان خلفه تماما في انتظار فتح الباب الذي ما إن تذكره حتى عاد أدراجه إلى الغرفة التي فُتح بابها، ووجد نفسه في مواجهة أحد العمالقة والذي كان يشبه العملاق الذي لقي مصرعه منذ دقائق، كان يبدو نسخة طبق الأصل منه، كان العملاق يمسك بيده سيفا حادا طوَّحه في وجه سلام الذي تراجع للخلف في رشاقة متفادياً نصلَ السيف، قبل أن يستلَّ سيفه من غمده، وهو يتقدم في سرعة موجها ضربة قوية أصابت يد العملاق الممسكة بالسيف فأدمتها، وسالت الدماء منها، فجُنَّ جنون العملاق الذي رفع سيفه عالياً قبل أن يهوي به في قوة فوق رأس سلام الذي تجاوز العملاق ماراً عبر ساقيه قبل أن يغرس السيف في ظهر الأخير في موضع القلب، وشهق العملاق قبل أن يسقط على وجهه جثة هامدة ..

وقف سلام يلتقط أنفاسه، وهو يتلفت حوله خشية أن يكون هناك آخرون، وقبل أن تضغط يده النقش البارز بالباب الذي أوصد مرة أخرى، اخترقت أذنيه صرخةٌ حملت رعب الدنيا، وجد قلبه وقد زادت نبضاته التي كان يُخيَّل إليه أنه يسمعها من شدتها، فقد انطلقت الصرخة من شخص يعرفه جيدا .. منها .. من جميلة، ووجد نفسه يهبط درجات السلم في سرعة رهيبة، وهو يتجه مباشرة إلى حيث ترك جميلة وباقي الفرسان الذين تركهم لحراستها، أخذ يدور في المكان كالمجنون، وهو يفحص كلَّ شبرٍ فيه بحثا عنهم، لكن دون جدوى؛ لقد اختفي الجميع، كان يحدث نفسه بصوت مرتفع وهو يقول: أيُّ لعنةٍ حلَّت بنا ؟ أي مكان هذا الذي نحن فيه؟!

كان يشعر بالضباب يكتنفُ عقله، كان يودُّ معرفة أين اختفي الجميع، كان لا يدري ما سر كل هذا الغموض الذي يغلِّف كلَّ شيء! أي يدٍ خفية تُحرِّك كل ما يلقي؟

سمع صوت أقدام تتجه نحوه، فاستيقظ من شروده وهو ينظر أمامه، فوقعت عيناه على ثلاثة من العمالقة استلَّ كل واحد منهم سيفا ضخما، كانوا قادمين نحوه، والشرر يتطاير من عيونهم،

وقف منتظرا مواجهتهم بعد أن أدرك أنه صار وحيدا في هذا العالم الغريب .

*****

كان سلام يوقن أن المواجهة المباشرة مع ثلاثةٍ من العمالقة ستنتهي بقتله وتمزيقه إربا؛ لذا فقد كان ينهك عقله الذي كان يعمل بسرعة بحثاً عن حل للتخلص من مهاجميه، فوجد نفسه يضع سيفه في غمده، وبيده تضع سهما على وتر القوس الذي أمسكه في قوة، والعمالقة يواصلون اقترابهم، وانطلق السهم مخترقا عنق العملاق الأول الذي أطلق حشرجة عالية قبل أن يسقط جثة هامدة، وقبل أن يتحرك أحد من العملاقين انطلق السهم الثاني مخترقاً فخذ العملاق الثاني الذي أطلق صرخة عالية من الألم، وهو يلقي بسيفه نحوه في قوة، وقفز سلام جانبا متفاديا السيف الذي مرَّ على بعد سنتيمترات من جسده قبل أن يستقر في الجدار المقابل، وأطلق سهما آخر اخترق جبهة الثالث الذي سقط صريعا دون أن يتفوه بأيِّ صوت، وقبل أن يُطلق سهمه الرابع شعر بجسده يرتفع لأعلى، وقد أطبقت على عنقه يد العملاق الأخير، الذي رفعه لأعلى قبل أن يقذف به في قوة نحو الجدار، الذي اصطدم به سلام قبل أن يسقط أرضاً، وقد شعر بأن عظامه قد تحطمت من عنفِ الاصطدام، ورغم تحامله على نفسه وهو يستلُّ سيفه في سرعة إلا أن العملاق لم يمنحه الفرصة للنهوض؛ فقد انحنى ليمسك به معاودا الكرة محاولا رفعه، وقذفه نحو الجدار، لكن سلام الذي كان يقاوم فقدانه الوعي غرس سيفه بكلِّ قوةٍ ورغبة في الحياة في صدر العملاق الذي تراخت يداه قبل أن يُطلق حشرجة قوية، وقبل أن يسقط على جسد سلام الذي كان يدرك أن سقوط مثل هذا العملاق كفيل بتحطيم ضلوعه، لذا فقد تدحرج جانبا مبتعداً عنه، وسقط العملاق على الأرض جثة هامدة، ظل بعدها سلام مستلقيا على الأرض ليلتقط أنفاسه، وهو يفكر فيما آل إليه الوضع، كان يود معرفة أين ذهب رفاقه، كان يموت رعبا خشية أن يكون قد فقد ابنته الحبيبة للأبد، خفق قلبه وارتجف جسده في عنف

عندما جال بعقله هذا الخاطر، فوثب ناهضا من رقدته متناسيا آلامه، وهو يرتقي درجات السلم صاعداً للطابق الثاني، وتلفت حوله في حذرٍ قبل أن يتجه نحو باب الغرفة الوحيدة بالطابق، وضغط النقش البارز بيده، وفتح الباب وكانت في انتظاره مفاجأة، فأمامه كانت تجلس فتاة، وقد شُدَّ وثاقُها إلى المقعد الذي كانت تجلس عليه، وقد كُمِّمَ فمُها.

ظل يحدق فيها في ذهول، وقد تدلت فكه في بلاهة، وهو ينظر إليها؛ فقد كانت زوجته أميرة، إذن لقد صدق حدسه، كان يحدق فيها مذهولا غير مصدق أنه يقف أمامها، وأنه يراها مرة أخرى، بينما كان الحزن يعتصر قلبه على فقدانه لابنته، لكن لم يطل شروده طويلا؛ فقد أفاق من شروده على نظرة الفزع والخوف التي أطلت من عين زوجته فجأة، جعلته نظرتها يشعر بالخطر، ولكن قبل أن يستدير للخلف شعر بذراع قوية تُطوِّق عنقه من الخلف، وقد كانت هذه الذراع تضغط على عنقه في قوة وعنف، شعر معها سلام بأنفاسه تضيق، وبالأرض تميد من تحت قدميه ..

*****

٩ ـ نقطة الصفر

كان الحزن يخيم على دار سلام منذ اختفائه وابنته، وكانت سلمي وصيفة جميلة المخلصة شديدة الحزن على فراق سيدتها، لقد كانت تؤنب نفسها على عدم مصاحبتها في رحلتها الأخيرة، رغم أن مرضها الشديد هو الذي منعها عن ذلك، كان الموت أحب إليها من فِراقها؛ فقد كانت جميلة تعاملها برفق وأخوة حتى أنها لم تشعر في يوم من الأيام أنها مجرد خادمة لديها، وكان عزاء سلمي الوحيد الذهاب إلى مخدع سيدتها الخاص، والجلوس على سريرها تستنشق رائحتها، تتذكر كل ما مرَّ بهما من ذكريات، وكعادتها اتجهت في ذلك اليوم نحو مخدع جميلة بعيون دامعة، وهي تقترب من سريرها، وانطلقت من حلقها صرخة حملت رعب الدنيا، فقد كان هناك شخص ينام على سرير سيدتها، يتدثر بغطائها، كانت تنظر إليه في ذهول، قبل أن يقتحم الحراس الذين جذبتهم صرختها المخدع، ويصيح أحدهم سائلا إياها: ما الـ..

بتر عبارته، وهو ينظر في الجسد المسجى على سرير سيدته في ذهول، وقبل أن يتفوه هو أو أحد من رفاقه الثلاثة، امتدت يد سلمي لتزيح الغطاء عن صاحب الجسد الذي ما أن رأت وجهه، حتي أطلقت صرخة رددت جنبات الغرفة صداها قبل أن تسقط فاقدة الوعي، وقد ارتسمت علي وجهها معالم الدهشة والرعب، ولم يكن الحراس أقل دهشة منها، فأمامهم كانت سيدتهم جميلة تغط في نومٍ عميق، لكن صرخة وصيفتها أيقظتها من نومها، فنظرت حولها في فزع، وهي تنظر إلى الحراس الذين انشغل اثنان منهم بحمل سلمي، وهم يحدقون فيها، وأجسادهم ترتعد من الرعب، قبل أن تقول بصوت خافت : ما الأمر أيها الحراس ؟ أين أنا؟ قالتها وهي تنظر حولها، وقد أدركت أنها في مخدعها الخاص، فعادت تُحدِّث أحد الحراس قائلة: كيف جئت الي هنا؟ أين والدي؟

- أنت مَن تمتلك الجواب لكلِّ تلك الأسئلة يا بنيتي؟

قاطعها صوت حسان الذي اقتحم المخدع في سرعة، وقد أحاط به عدد كبير من أهل قبيلتها.

كان قد اقترب منها، فدنا نحو وجهها وهو يقول: هل أنتِ بخير؟ طمئنيني يا بنيتي .

كانت تشعر بآلام رهيبة تسري في جسدها، وهي تحاول النهوض، لكن منعتها آلامُها، فقالت وهي تمسك بجانبي رأسها، وقد بدا الألم على وجهها: كان حلما غريبا .. عمالقة

كانت تتحدث، وهي تحاول أن تتذكر ما مرت به، كما كان حسان يحثها على التحدث أملا في معرفة الحقيقة التي ستوصله لمكان سيده وابنه الوحيد زيد وجاسر، فقد عاد كل الفرسان،

لقد عثر ذويهم عليهم، وهم يغطون في نوم عميق حتى أن الحكيم ربيع أكد أنهم فقدوا وعيهم، وأنه أمامهم فترة كبيرة حتى يستردوه، لكن جميلة صمتت فجأة قبل أن تسقط على سريرها فاقدة الوعي .

*****

استوعب سلام الموقف الذي يواجهه في سرعة، وأدرك من محاولات إفلاته من خصمه أنه ضخم الجثة ويفوقه حجماً وقوة، كان يشعر بأنفاسه تختنق، وخصمه يضغط في قوة على عنقه الذي التفَّت يده حوله ضاغطةً على فقراته، لكنه كان يشعر بالارتياح؛ فقد أغفل خصمه زراعيه لذا كان عليه التحرك بسرعة وإلا فسيصبح جثةً هامدة لو استمر الوضع على ما هو عليه، فاستلَّ سيفه في سرعة رغم اختناق أنفاسه، ومال بجسده الذي كان يتأرجح يمينا ويسارا، قبل أن يغرس نصلَ سيفه في قوةٍ في فخذ العملاق الذي أطلق صرخةً مُدوية وقد شعر بالألم، وقبل أن يتحرك العملاق الذي كان يحاول لوي عنقه في قوة ليحسم الأمر، قام الأخيرُ بغرس سهمٍ أمسكت به يده الأخرى بعد أن استطاع سحبه بأصابعه من كنانته في يد العملاق المُلتفة حول عنقه في قوة، صدرت زمجرة غاضبة من العملاق الذي تراخت يداه، وانتهز سلام الفرصة ليدفع قدميه في وسط العملاق في قوة، وتخلَّت يدُ العملاق عن عنقه، ووجد نفسه يسقط أرضاً فنهض على الفور، وقد أمسك بكلتا يديه بسيفه الذي التقطه من الأرض بعد أن سقط إلى جواره، وغرس السيف في بطن العملاق، وغاص السيف حتى آخره بارزا من ظهر العملاق الذي تهاوي جسده أرضا، بعد أن قام بسحب سيفه في سرعة وقوة قبل أن يقفز جانبا، ووقف يلتقط أنفاسه بعد أن تيقن من موت العملاق الذي قام بمهاجمته، كان قلبه يخفق في قوة وهو يسير نحو زوجته التي فقد الأمل في رؤيتها مرة أخرى، كانت مشاعره فيَّاضة حتى أنه سمح لدموعه بالفرار من عينيه دون مقاومة منه، صرخ في فرح: أخيرا يا حبيبتي، أخيرا التقينا.

كان مبتهجا وقد نسى كلَّ ما تعرَّض له من آلام ومتاعبَ، وهو يواصل سيره نحو زوجته ليخلصها من قيودها، لكن قبل أن يصل إليها انبعث من خلفه صوتٌ جاف يقول في حدة: لقد انتهى الأمر يا هذا .

استدار سلام في سرعة، وهو يبرز سيفه أمام صدره ليرى مصدر الصوت، وقد عاوده شعور الخطر الذي أدرك أنه لم يفارقه بعد، وعلى بعد ثلاثة أمتار منه بدا شخص في مثل طوله، كان يصوِّب نحوه جسما شفافا مربع الشكل، وقد انطلقت من منتصفه كتلة من اللهب نحو صدره تماما، وندت شهقة مفعمة بالرعب من فم زوجته كتمتها الكمامة التي كانت تحيط بفمها في إحكام فور رؤيتها لكتلة اللهب التي مرقت بجوارها قبل أن تسقط بالقرب منها، وقد ظنتها ستصيب جسدها، وذلك بعد أن أحنى سلام جسده لأسفل فور رؤيته لخصمه، وهو يصوِّب نحوه سلاحه الغريب، والذي كان يظنه في بادئ الأمر فور رؤيته إناءً زجاجيا عاديا، لكن ما لقيه من مخاطرَ وغرائبَ في هذا العالم الغريب جعله يدرك أن هذا المربع الزجاجي يحمل له الخطر؛ لذا فقد انحنى لأسفل، وقد لمح كتلة اللهب تنطلقُ منه متجهة نحوه، لكنه تفادها بانحناءته السابقة، وهو يقذف سيفه في قوة نحو خصمه قبل أن يعاود الكرَّة مرة أخرى .. غاص السيف في قلب خصمه الذي شهق في قوة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويسقط جسده جثة هامدة على الأرض، وتقدم سلام نحو خصمه منتزعا السيف من قلبه وهو يقطر بالدماء التي سالت على الأرض، قبل أن يمسحها في ثياب الأخير، والتي بدت له غريبة الملمس، قبل أن يتجه في سرعةٍ نحو زوجته والتي بدأت النيران تسري من حولها، وعمل على فك قيودها في سرعة، وحملها بذراعيه مندفعا خارج الحجرة وهو يعدو نحو السلم، ويهبط درجاته في نفس اللحظة التي امتدت فيها ألسنة اللهب خارج الغرفة لتسري فيما حولها، كان يسابق الزمن وهو يقف حاملا زوجته، والتي أعجزها طول بقائها على الكرسي الذي كانت مقيدة إليه عن الحركة، وكان سلام يدرك ذلك جيدا، كانت النيران تحيط بهم من كلِّ جانب فقد سرت في سرعة داخل المبني الضخم، وراحت يده تضغط النقش البارز الموجود بالباب بعد أن عثر عليه في صعوبة والعرق يتصبب من وجهه في غزارة، وبدأ الباب في الفتح، ودويَّ انفجار هائل داخل المبني أحدث موجة تضاغطية هائلة، وشعر بجسده يطير لأعلى في قوةٍ وبالألم يسري في جسده، وقد أفلتت يده زوجته رغما عنه، والتي طار جسدها خارج المبنى قبل أن يستقر ساكنا على الأرض في نفس اللحظة التي واصل فيها جسده ارتفاعه لأعلى مندفعا للأمام، واستعادت الجاذبية الأرضية عملها، وسقط سلام مرتطما بالأرض في عنف، وامتدت ألسنة اللهب خارج المبنى، وفقد سلام إحساسه بما حوله، وسقط فاقد الوعي .

*****

كان الحزن يُخيِّم على القبيلة، ويوما فيوم كان حسان يفقد الأمل في عودة سلام وابنه الوحيد زيد رغم حرصه على إرسال عشرات الفرسان يوميا إلى الواحة يمشطونها، ولا يعودون منها إلا بعد غروب الشمس خاويين الوفاض، وقد ظهرت علامات الحزن على وجوههم، وما زاد من حزن حسان وأهل القبيلة وجعلهم يفقدون الأمل في عودة المفقودين حالة الغيبوبة العجيبة التي سقطت فيها بنت سيدهم المحبوبة جميلة، ومن عاد معها من الفرسان رغم محاولات الحكيم ربيع المضنية والتي باءت جميعها بالفشل، ورغم ذلك لم يكف عنها، فقد كان ربيع وهو الرجل الطاعن السن والذي أبلته السنون لا يعرف اليأس له طريقا؛ فقد كان يملك من الأمل والمثابرة الكثير، كان عندما يرى جميلة وقد غطت في نومها العميق وسباتها الطويل يشعر بالحزن يقطعُ نياط قلبه، لكنه كان يكتم دموعه عن الآخرين، ومع مرور الأيام وبعد مشاورات بينه وبين حسان استقرَّ الأخيرُ على تجهيز عدد كبير من الفرسان قرر أن يرافقوه إلى الواحة، ومعهم جميلة والفرسان العائدون من الرحلة المشئومة؛ لغسل أجسادهم بماء البئر الذي يتوسَّط الواحة؛ فقد أكد الحكيم ربيع أن مياه البئر وحدها قادرة على إعادتهم للحياة .

****

لم يطل إحساس سلام الذي كان يشعر بخلايا جسده تئن من الألم بفقدان الوعي، سلام الذي كان يبدو كإنسان فقد ذاكرته، فقد ظل لحظة يحدِّقُ أمامه في ذهول، لكنه سرعان ما استعادت ذاكرته ما مرَّ به من أحداث، ونهض في سرعة متحاملا على نفسه، وهو يبحث بعينيه عن زوجته التي رآها على بعد عدة أمتار منه، وقد سكنت حركتها، فقد كان باديا له أنها فقدت الوعي، فقد كان يدرك أن الصدمة كانت من العنف فلم يحتملها جسدها الذي ارتطم بالأرض في عنف، كما دفعه مشهد النيران التي كانت تلتهم كلَّ شيء وتقترب منهما للتحرك في سرعة نحوها، وانحنى سلام ليحملها وهو يعدو مسرعا في الاتجاه المضاد للمبنى الذي انفجر للتو.

كان قد تحوَّل لآلة للعدو بعد أن استعاد عقله الإحساس بالخطر المحدق به من كلِّ الجوانب حتى أنه لم يشعر بنفسه إلا وهو يقف على بُعد ما يقرب من نصف كيلو متر من المبنى، فانحني واضعا جسد زوجته على العشب، ووقف يلتقط أنفاسه، وهو يتذكر كل ما مرَّ به من أحداث، العواصف، الرياح، الأعاصير، العمالقة، وذلك الصراع الرهيب الذي خاضه معهم، ورفاقه، وابنته جميلة، وكيف اختفى الجميع فجأة .. كان كل ما تعرَّض له يفوق قدرات أي عقلٍ بشري في هذه الحقبة الزمنية السحيقة، فلقد أبي مشهد ذلك السلاح الغريب الذي أطلقه نحوه

أحدهم والذي تسبب في اندلاع النيران أن يفارق عقله وهو الفارس الذي لم يكن يعرف سلاحا غير السيف والرمح، أي عالمٍ ألقت به الأقدارُ إليه؟ أي مكان ملعون جاء إليه بقدميه؟ كان يبدو مشدوها لا يعرف كيف سيخرج من هذا المأزق الذي يواجهه، انتزعه سعال زوجته التي كان يتأمل ملامح وجهها، وهو يتذكر أيامه الخوالي من تفكيره، فاندفع نحوها قبل أن يقول محاولا دفع الطمأنينة في نفسها: اطمئني يا حبيبتي لقد نجونا. قالها وهو يوقن أن الخطر مازال يحيط بهما، كانت تنظر إليه بوهن وهي تومئ برأسها في ضعف، قبل أن يأتي صوتها شاحبا باهتا: لا بدَّ أن نخرج من هنا بسرعة يا سلام .

كان يشعر بأنه يسمع اسمه للمرة الأولي؛ فقد كان لنطقها له وقعٌ خاصٌ على أذنيه، فانحني ليطبع قبلة حملت كلَّ الحنين الذي حملته سنوات الغياب، قبل أن يقوم بمساعدتها في الجلوس على العشب وهو يجثو على ركبتيه، وقد أمسكت كفاه بكفيها وهو ينظر إلى عينيها الزرقاوتين، وشعر بأنه يغرق في بحر عميق يبدو بلا قرار، وجد نفسه يتذكر كلَّ ما مرَّ بهما وكأنه لحظة،

وسالت الدموع على خديها كحبات اللؤلؤ وهي تضغط على كفيه في رفق وتقول: ما زلتَ على عهدي بك يا حبيبي .

كان قلبه يدقُّ في عنف، ووجد نفسه يسبح في بحر من الذكريات، وقد أتاه صوتها حالما: لقد ظننت أنك قد نسيتني مع مرور السنين .

زفر في حرقة، وهو يقول: أنساك ! وكيف للمرء أن ينسى نفسه؟! أقسم لكِ أنني لم أنسكِ لحظة، لقد كنت أحيا لأجل هدف واحد أن أراكِ ثانية، وأنعم بقربك، رغم مرور الأيام والشهور إلا أنني لم أشعر باليأس أو الملل في البحث عنك .

لثَّمت أميرة كفه، وهي تقول: وأنت لم تغب عن خاطري لحظة، كنت أراكَ في أحلامي في كلِّ شيء حولي، كنت أتخيلك قادما على جوادك الأدهم تخلصني من هذا العالم الملعون .

مسح دموعها بيده، وهو يقبلها قائلا: هدئي من روعك يا حبيبتي؛ سيكون كلُّ شيء على ما يرام.

تنهدت وهي تنظر إليه، وقد جعلها وجودها بالقرب منه تشعر بالأمان، وهي تقول: وابنتنا يا سلام كيف حالها؟

أعاده تساؤلها لواقعه، وامتعض وجهه، وقد شعر بالحزن يعتصر قلبه، وهو يجيبها قائلا: لهذا قصة طويلة يا حبيبتي .

بدا القلق واضحا على وجهها، وهي تقول في جزع: ما الذي حدث لابنتنا ؟ أجبني يا سلام ..

لاذ سلام بالصمت، وهو ينهض من مكانه، ويشبُّ لأعلى قاطعا بعض الثمار التي ناولها إحداها قائلا: يبدو أنك لم تذوقي الطعام منذ فترة يا حبيبتي، هيا فلتأكلي هذه حتى يمكننا مواصلة السير والبحث عن ابنتنا والهرب من هذا المكان الملعون .

ساد الصمت المكان خلال تناولهما بعض الثمار، قاطعته هي قائلة: ولكن كيف جئتَ إلى هذا المكان الملعون؟

شرع سلام يقصُّ عليها كلَّ ما مرَّ بهم منذ اختفاء أميرة، وحتى لحظة لقائه بها، مشاعر غريبة انتابتها امتزجت داخلها، مشاعر الفرح بالحزن، كانت لا تستطيع أن تمنع دموعها من الانهمار على خديها، فمازال سلام يذكرها، مازال قلبه معلقا بها، لقد كان وابنته بالقرب منها، لكنه القدر يصرُّ أن يفرقهما، أين ذهبت؟ وكيف رحلت قبل أن تلقاها؟ كانت الأسئلة تدور في عقلها الذي أنهكته سنوات مريرة قضتها بعيدا عمن تحب، قضتها في عالم غريب كئيب ملعون، عالم كان كل ما فيه يبدو غريبا لها، رغم طول السنوات التي قضتها فيه لم تستطيع أن تألفه، لقد كان عالما باردا خاليا من المشاعر، كانت تحيا فيه مسلوبة الإرادة و..

- حبيبتي لا بدَّ من سرعة التحرك .

انتزعتها عبارة سلام من خيالاتها، فنظرت إليه وهو يكمل قائلا: لابدَّ من الوصول إلى المخرج من هذا المكان الملعون .. قاطعته قائلة: ما تقوله هو المستحيل يا سلام .

شعر بانقباض في صدره إثر عبارتها، وهو ما دفعه للقول في خفوت ويأس: لماذا يا حبيبتي؟

أجابته قائلة: مَن دخل أرض التوران لا يستطيع أن يخرج منها، لابد أن تصيبه لعنةٌ أبدية .

قالتها ليسود بعدها الصمت التام .

****

الـقِسْـمُ الـثَانِـي

أرضُ

التـوران

١ ـ العالم

حاول سلام الخروج من حالة الإحباط التي كان يمر بها بعد عبارة أميرة، كان عقله يبحث عن حل، كيف يمكن له الخروج من هذا المكان؟ أي لعنة تلك التي تتحدث عليها زوجته؟ وإذا استطاع الهرب من أرض التوران- ذلك الاسم العجيب الذي لم يكن يدري أي معني له - فكيف سيعود ثانية للبحث عن ابنته جميلة؟ أي مأزق هذا الذي يواجهه؟

توقَّف عقله فجأة، وهو ينظر إليها، كان يهمُّ بسؤالها لكن أميرة اندفعت قائلة: أعلم أنك تود معرفة كيف تسنَّى لي البقاء طوال السنوات الماضية في هذا العالم دون أن أصاب بضر؟

همَّ أن يتكلم ثانية، لكنها استطردت قائلة: كما أعلم أنك تود معرفة كيف أنى ما زلت أحتفظ بعمري في مرحلة الشباب دون أن يصيبني الهِرم؟

انعقد حاجبا سلام في شدة، وهو ينظر إليها في دهشة، وقد عجز لسانه عن الكلام، لكن أميرة واصلت حديثها قائلة: تتساءل كيف عرفتُ ما يدور بخاطرك؟

أجابها وقد شعر بالخوف يسري في أوصاله؛ فقد انتابه الشك في أن الجالسة أمامه ليست أميرة زوجته، مؤكد أنها شيطانة تشكلت في هيئتها، قاطعته أميرة قائلة: لا داعي للقلق يا سلام، أنا أميرة زوجتك، وما قلته ليس ادعاءً مني بمعرفة الغيب؛ فلا أحد يستطيع ادعاء ذلك .

اندفع سلام قائلا، وهو ينظر إليها: كيف عرفتِ ذلك إذن؟

قالت في هدوء: أرض التوران يا سلام لها قواعد وقوانين غير التي نعرفها في عالمنا؛ فهنا كل شيء يختلف، فمثلا لا يمكنك النظر والحكم على الأشياء بظاهرها .

صمتت لحظة قبل أن تقول بصوت جمَّدَ الدماء في عروقه: الشجرة التي تسند ظهرك إليها على سبيل المثال من الممكن أن تكون كائنا آخر تشكَّل في هيئتها .

انتفض جسد سلام في خوف عند سماعه عبارتها الأخيرة، قبل أن يندفع مبتعدا عن جذع الشجرة العملاقة، وهو يتخيَّل تحولها إلى كائن بشع الخلقة ينقض عليه، لكن أميرة قالت: لا داعي للقلق؛ فالقاعدة تقول مَن عرف لغة قوم أمن شرهم، ففور قدومي إلى هنا تعلمت منهم معرفة قراءة الأفكار، كما استطاعوا بث لغتهم وتاريخهم وكل علومهم في عقلي مباشرة و ..

قاطعها سلام الذي كان يصعب عليه فهم ما تقول، كما كان يصعب عليه تصديق ذلك: منهم وكيف و .. ؟!

قاطعته قائلة: التلقين الآلي .. عن طريق التلقين الآلي استطاعوا غرس كلِّ شيء عنهم في عقلي.

كان الذهول باديا على وجهه وعقله يبحث عن أي معني لذلك المصطلح الذي يسمعه لأول مرة، لكنها مرة أخري انتزعته من شروده، وهي تقول: حتى تستطيع معرفة كل الحقائق التي توصلت لها .

صمتت لحظة وهي تشير له بالجلوس قبالتها، وتمد كفها نحوه قائلة: عليكَ إمساك كفي، والنظر إلى عيني .

حسم أمره بعد تردٍ لم يطل كثيرا، وأطبق كفه على كفها، وهو ينظر إلى عينيها، وشعر برعشة قوية تسري في جسده الذي انتفض في عنفٍ، قبل أن يستقر ساكنا، وقد اختفت الأشجار والمبان من حوله، ووجد نفسه ينتقل إلى مكان آخر، وزمن آخر، وعالم آخر.

*****

كان الموكب الذي جهزه حسان انصياعاً لتعليمات الحكيم ربيع قد وصل أرض الواحة، وعسكر الجميع بالقرب من البئر، وضُربت الخيام، وتفرَّق الفرسان في أرجاء الواحة شاهري سيوفهم، وقد عفَّرت الجياد الواحة التي تخلت عن هدوئها، وصارت تعجُّ بالحياة، ووقف حسان وبجواره الحكيم ربيع يرقبان مجموعةً من الفرسان الأشداء وهم يدلون أجساد الفرسان العائدين من رحلتهم الأخيرة، والتي كانوا يرافقون فيها سيدهم سلام، ليغمسوا أجسادهم فارسا تلو الآخر في مياه البئر، وهم يمسكون بأقدامهم في إحكام قبل أن يقوموا بإخراجهم من المياه ليضعوهم على فراش أعدوه خصيصا بخيمة شُدَّت أوتادُها بالقرب من البئر، ثم حمل فارسان جميلة وهي ترتدي كامل ثيابها قبل أن يغوص جسدها في المياه، وعيون حسان تراقبهم جيدا، وقد شعر بالقلق يعصف به، كان لا يدري لماذا سيطر عليه شعور غريبٌ بأن كارثة ما ستحدث ؟

لكن مرت الأمور بسلام، واحتلت جميلة مكانها بين الفرسان، وقد توسدت الفراش، والتف حولها عددٌ من الوصيفات، كان السكون سيد الموقف؛ فقد ران صمت طويل لم يجرؤ أحدٌ على تبديده، مرَّ وقت طويل دون أن يطرأ أي تغيير على حالة جميلة أو الفرسان، حتى شعر حسان بعدم نفع كلام الحكيم ربيع فوقف متململا وهو ينظر حوله في صمت، وفي اللحظة التي كان يهمُّ فيها بإلقاء أوامره بمغادرة الواحة والعودة إلى ديارهم بدت الحياةُ تدبُّ في جسد جميلة والفرسان،

وبدأت أجسادهم تنتفض في عنف جعل الناظرين يشعرون بالقلق، وأيقن حسان أن جميلة والفرسان يشهدون لحظاتهم الأخيرة.

****

أرض ثالثة أسفل عالمنا، تعلوها أرض ثانية خاوية من كلِّ أنواع الحياة، وفوقها الأرض التي نحيا فيها نتنفس هواءها، نشرب مائها، عالمنا بخيره وشره، بحلوه ومره، وقد كانت هذه الأرض الثالثة تشبه الجنة تماما؛ فقد زخرت جنباتُها بالحدائق الغنَّاء، والأنهار الجارية عذبة المياه والتي كانت تسيل رقراقة في منظرٍ بديعٍ، كما كانت تحفها المباني شاهقة الارتفاع، وقد بلغ سكان هذه الأرض شأنا كبيراً من التقدم والتطور العلمي، كما كانوا يشبهون البشر تماما من حيث التكوين الجسماني والملامح فيما عدا بعض الاختلافات الطفيفة من حيث زيادة العظام وشدتها، كما كانت أجسادهم أسطوانية؛ حتى تحتمل شدة الضغط الجوي والجاذبية الأرضية، وكانت عيونهم أكثر اتساعا يعلوها حاجبان ورموش وأهداب كثيفة ومزدوجة؛ وذلك حتى تستطيع مواجهة الضوء المبهر الذي كان ينبعث من شمسي الكوكب؛ حيث كان لهذه الأرض شمسان تتعاقبان، وهو ما جعل هذه الأرض تحيا في نهار دائم، ولما كانت دورة الأرض حول الشمس وحول نفسها غير مكتملة غرق قطبها الشمالي، والذي كان يمثل نسبة عشرين في المائة من مساحتها في ليلٍ دامس وظلام سرمدي، كما كان القطب الشمالي عبارة عن مياه وجليد فقط، ولا مكان فيه للبابسة، ورغم التقدم العلمي الذي بلغه سكان هذه الأرض، والذي مكَّنهم من ارتياد الفضاء، واستكشاف العوالم الأخرى، وإجراء التجارب والبحوث العلمية فوق الأرض الثانية وأرضنا، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يعمروا هذا الجزء المظلم من أرضهم؛ فقد باءت كل محاولاتهم بالفشل حيث اختفت أول بعثة علمية ذهبت لاستكشاف ودراسة المكان في ظروف غامضة، ولم يستطيعوا العثور عليها فجهزوا عددا كبيرا من المقاتلين مُدججين بالذخيرة والعتاد، كان برفقتهم عدد كبير من العلماء وأجهزة التصوير الفضائية، وتوغلت سفنُهم الهوائية والتي كانت تمتلك القدرة على الطيران بسهولة ويسر، كما كانت تملك خاصية العبور فوق المياه، وكانت كلما تقدمت في المسير وسط الظلام الدامس الذي لم تنجح كلُّ أجهزة الإضاءة الحديثة في تبديده بدا لهم فراغ سرمدي يحيط بهم من كلِّ جانب، وهو ما دفع الرهبة في قلوبهم، وقبل أن تقترب سفنهم من ذلك الكهف الذي بدا لهم وقد أنارت جنباته نيران عظيمة لم يروا لها مثيلا في حياتهم، انقطع لديهم أي أمل في العودة مرة أخري ومغادرة ذلك المكان الذي يجعلهم يرتجفون من الخوف والرعب الذي سيطر

عليهم؛ فقد انقضت عليهم الصواعق، وانهمرت السيول، وثارت العواصف، وزأرت الرياح، كانت لوحة مكتملة من الرعب، وجفَّت حلوق الرجال من الصراخ،

واشتعلت النيران في سفنهم وسرت فيها، وتدافع الجميع في خوف وعشوائية محاولين الفرار من النيران التي التهمت الكثير منهم، وتفحمت الجثث، ومَن نجا منهم وسقط في الماء وجد نفسه بين براثن فكين قويين لمخلوق بشع الخلقة لم يروا له مثيلا، وانتهى كلُّ شيء في لحظات، وأصبحت البعثة أثرا بعد عين ..

- كفي .. كفى ..

نطق سلام هذه الكلمة وهو يتصبب عرقا، لم يستطع عقله استيعاب كل هذه الحقائق، كما أعادته رؤية العملاق الذي كان يتسلل قادماً نحوهما إلى عالم الواقع، وهو ما أثار الغضب داخل أميرة التي لم تكن ترى العملاق القادم من خلفها، لكنها سرعان ما شعرت به، فنهضت من مكانها، ومالت جانبا ليصبح سلام في مواجهة العملاق الذي رفع سيفه عاليا قاصداً حصد رأس سلام متجاهلا وجود أميرة تماما، لكن الأخير قفز للخلف في رشاقة متفاديا سيف العملاق الذي أصاب إحدى الأشجار فشطرها نصفين، وهو ما زاد من غضبه وجعله يطلق زمجرةً قوية، وقبل أن يعاود الكرَّة مرة أخرى أطلقت أميرة صرخةً عالية حادة جعلت العملاق يلتفت إليها في غضب، وقد ظهر الألم علي وجهه لكنها لم تكف عن صرخاتها، وهي تشير لسلام أن يحذو حذوها وهو ما جعل العملاق يفلت سيفه الذي سقط أرضاً، وهو يضع يديه على أذنيه، ولم ينتظر سلام العملاق الغاضب الذي كان يتجه نحو أميرة، وإنما قام بالتقاط السيف بسرعة ليغرس نصله في ظهر العملاق في موضع القلب تماما وسالت الدماء على الأرض، وسقط العملاق جثة هامدة، وقف سلام يلتقط أنفاسه وهو يلتفت حوله في حذر؛ فقد كان يخشى أن يكون هناك المزيد من العمالقة ..

- لا تقلق .. لا يوجد أحد سواه .

جاءت عبارة أميرة لتزيد من قلقه، وهو ما جعله يقول في توتر: وكيف عرفتِ أنه لا يوجد أحد سواه ؟

قالت في صوت لاهث: أنا أشعر بذلك .

قال: أي جواب هذا؟

أجابته بعد أن هدأت أنفاسها وانتظمت: ستعرف كلَّ شيء في وقته، لكن علينا أن نذهب لمكان آخر الآن؛ فمؤكد أن صرخاتنا ستجذب المزيد منهم .

كانت أميرة تلهث، وهي تعدو بجوار سلام الذي أمسكت كفه كفها في قوة؛ فقد كان يخشى أن يفقدها مرة أخرى، كان يعدو بجوارها مبتعدين عن المكان في صمتٍ قطعته أميرة وهي تشير إلى أحد المباني متوسطة الارتفاع، والذي كان يبدو أنه خالٍ من أي أثر للحياة قائلة : أعتقد أن هذا المنزل مخبأ مناسب .

لم يشأ مجادلتها؛ فقد كان يوقن في داخله من أنه لا جدوى من الاختباء، فلا بدَّ من الفرار والمواجهة، لكنه آثر الصمت وهو يبحث عن النقش السحري الذي ضغطه فور رؤيته ليُفتح الباب على مصراعيه، فدلفت أميرة داخل المبنى، ولحقها هو وأغلق الباب مرة أخرى..

راحت عيناه تفحصان المكان بالداخل في دقة، كان مبنى بسيط التكوين، لا توجد به سوى غرفة يتيمة كان بابُها موصداً، كما كانت هناك أريكة واحدة كبيرة تتوسط المكان وضعت أمامها منضدة رُصَّت عليها أطباق ممتلئة بأنواع شتى من الفاكهة التي أصابها العفن والجفاف، وهو ما جعله يوقن من أن هذا المبنى قد هجره أصحابه منذ زمن بعيد، فنظر إلى أميرة التي بادرت بالجلوس على الأريكة، وقد بدا على وجهها الإرهاق والتعب، قبل أن تدعوه للجلوس إلى جوارها، فألقى بجسده على الأريكة واضعا رأسه على صدرها، وقد ندت منه زفرة حارة وهو يقول: وما الحل يا حبيبتي ؟ كيف يمكننا العودة إلى عالمنا والعثور على ابنتنا؟

عدلت أميرة من جلستها، وهي تحيط خديه بكفيها في حنان، قبل أن تنحني مقبلة جبهته، وهي تقول: حبيبي .. لا بدَّ من إكمال ما بدأناه، لا بدَّ من معرفتك لكلِّ تفاصيل هذا العالم؛ حتى نستطيع العودة إلى عالمنا .

ساد الصمت التام بعد عبارتها، وهي تمدُّ يدها أمامه، فأمسكت كفه كفها، وهو ينظر عينيها ليعود لهذا العالم الملعون مرة أخرى .

*****

كان مجلس الحرب مجتمعا بناءً على أوامر الملك زيجا ملك الأرض الثالثة، والذي دعاه للانعقاد وكانت دعوة الملك لانعقاده تعني وقوع حدث جلل، وللمرة الأولى في تاريخه ومنذ تشكيله ينعقد مجلس الحرب مجتمعاً بكامل عدده؛ فجميع قادة الجيوش والحكماء حضروا واتخذوا أماكنهم حول المائدة المستديرة التي كانت تتوسط بهو القصر الملكي، والذي قطعه الملك زيجا جيئةً وذهاباً وهو يعقد كفيه خلف ظهره، وهو يقول لوزيره توران والذي كان طويل القامة، مفتول الساعد، قوي الجسد، عريض المنكبين، حاد النظرات على عكس ملكه الذي كان متوسط الطول نحيف الجسد : جهز الجيوش أيُّها الوزير، لا بد من التحرك على الفور.

هزَّ الوزير رأسه في قلق قبل أن يقول: أرى أن ننتظر يا مولاي و..

قاطعه الملك غاضبا وهو يقول: كيف ننتظر أيُّها الوزير؟ لقد مرَّ على ذهاب البعثة شهران كاملان، وقد انقطعت أخبارهم .

علت همهمات قادة الجيوش مؤيدةً كلام ملكها، لكن وقف كبير الحكماء وهو يقول: هل يأذن لي مولاي بالحديث ؟

ران الصمت القاعة، وعيون الجميع تُحدِّق في كبير الحكماء الذي أشار له الملك بالحديث، فشرع قائلا وهو ينحني تبجيلا لملكه الذي كان يُجله: مولاي .. أرى أنه علينا أن نعدَّ بعثة استكشافية أخرى تكون كلها من المقاتلين الآليين الذين تفتقت عنهم قريحة علمائنا .

حكَّ الملك زيجا رأسه، وهو يفكر قبل أن يقول: لا أرى فائدة لذلك؛ فمؤكد أننا فقدنا أفراد بعثتنا، وتحطمت كل أجهزة التصوير الفضائية، أو حدث شيء أعاق عملها .

صمت لحظة قبل أن يقول: أتدرى ماذا يعني ذلك يا كبير الحكماء؟

لم ينتظر الجواب لكنه واصل قائلا: هذا يعني أنه هناك قوة خارقة تصدَّت لبعثتنا، وقضت عليها .

قال الوزير توران: مولاي .. إنني أرى ذلك سببا أدعى لأن نأخذ باقتراح كبير الحكماء؛ حتى لا نخسر المزيد من مقاتلينا، ونستطيع جمع المزيد من المعلومات عن المكان وطبيعة عدونا الذي سنواجهه .

لاقت كلمات الوزير صداها لدى الحضور، وهنا لم يجد الملك بداً من طرح الأمر للاقتراع، وانتهى مجلس الحرب بقراره، وانطلقت بعثةٌ مكونة من عشر سفن ضخمة محملة بأحدث الأسلحة التي يحملها المقاتلين الآليين، ووصلت البعثة إلى القطب الشمالي حيث الظلام،

حيث الماء والنار، وتوقفت الإشارات التي كانت تبثُّها أجساد المقاتلين الآليين وكأنها أصبحت داخل مجال مغناطيسي قوي كان يعيق انبعاثها وإعادة بثّها، كما أصابها الجنونُ فصار أفراد البعثة يحارب بعضهم البعض، وانطلقت الرياح والأعاصير، وهدرت الأمواج، وغرقت السفن، واختفت البعثة ولم يعد لها أثر ..

وداخل قصره الملكي جلس الملك زيجا على عرشه، وأمامه جلس الوزير توران وقد كان القلق بادياً على وجهه، وهو يقول للملك: الأمر جد خطير يا مولاي؛ لقد انقطعت وسائل الاتصال مع البعثة، وانقطعت أخبارها .

قال الملك في غضب: كنتُ موقناً من ذلك، لا بد من سرعة التحرك لـ ..

- مولاي .. مولاي .

نطق الحاجب عبارته، وهو ينحني أمام الملك الذي قال له: ما الأمر ؟

قال الحاجب: قائد المنطقة الأرجوانية المجاورة للقطب الشمالي يطلب الإذن بالدخول، ويبدو من هيئته أن الأمر خطير.

قال الملك: دعه يدخل على الفور .

وما هي إلا ثوان معدودة حتى مثلَ قائدُ المنطقة الأرجوانية، وكان طويل القامة، أبيض البشرة، رث الهيئة أمام الملك، وهو ينحني قبل أن يقول في صوتٍ لاهثٍ وهو يلتقط أنفاسه والخوف يطلُّ من عينيه: كارثة يا مولاي .

نظر الملك نحوه في صمتٍ، وقد انتابه شعورٌ بالخوف؛ فهيئته الرثة ونظراته الزائغة كلها أشياء لا تُنبئ بخير، وطال صمت الملك وانتظاره مع توقف الأول عن الكلام لالتقاط أنفاسه، وهو ينظر بذهول في أرجاء المكان، وكأنما يخشى التفوه بحرفٍ واحدٍ، وهو ما دفع الوزير توران للقول في غضب: ما الأمر يا سان ؟ فلتقل ما عندك .

قال سان على الفور، وكأنما كان ينتظر الإذن بالحديث: فليأذن لي مولاي بالجلوس أولا.

أومأ له الملك، فتهاوى على أقرب مقعد قبل أن يقول: لقد تابعنا مواصلة بعثة مولانا للقطب الشمالي، ولكن ما أن وصلت البعثة حتى حدثت الكارثة يا مولاي .

صمت يلتقط أنفاسه، ثم واصل قائلا: لقد أصاب المنطقة الرياح الشديدة التي راحت تقتلع المباني والأشجار، واندفعت مياه لا ندري من أين أتت أخذت تجرف في طريقها كلَّ ما تقابله،

لقد أصبحت المنطقة خاوية على عروشها، أصبحت المياه تغطي كل شيء، وساد الظلام التام، واختفت الشمس تماما يا مولاي، لقد كان طوفانا لم نرَ له مثيلا .

نهض الملك من فوق عرشه، وهو يقول في جزع: أي هراء هذا الذي تقوله؟ هل جننت؟

قال سان والذي كان يبدو أنه على مشارف الانهيار: وتلك المخلوقات .

أغمض عينيه، وهو يحاول نسيان منظرها: إنها بشعة يا مولاي، لم أرَ مثلها في حياتي، لقد كانت .

صمت وقد انتفض جسده في قوة، وهو لا يقوى على مواصلة الكلام، نهض توران وربَّت على كتفه، وهو يقول: اهدأ أيها القائد، تمالك أعصابك .

قال سان: لا بدَّ من الرحيل، لا بدَّ أن نرحل؛ فالطوفان آتٍ، والمياه تواصل تقدمها و..

قبل أن يكمل عبارته سقط رأسه على صدره، وانطلقت حشرجةٌ قويةٌ من حلقه، قبل أن تخمد حركته تماما، صاح الملك: كبير الأطباء .. أين كبير الأطباء؟

ما هي إلا ثوان حتى حضر شخصٌ طاعن السن، شاحب الوجه، انحني نحو سان يفحصه دون انتظار أوامر الملك؛ فقد كان الأمر واضحا، وما هي إلا لحظة رفع رأسه بعدها وهو يقول في أسى وحزن: لقد مات يا مولاي، يبدو أنه تعرَّض لصدمة عصبية شديدة أودت بحياته.

أشار الملك إلى الحراس الذين حملوا سان وانصرفوا بعد أن أصدر الملك أوامره بسرعة دفنه، صاح بعدها: أيُّها الوزير .. ادعُ مجلس الحرب للانعقاد على الفور .

علت الأصوات خارج القصر، وحدثت جلبة وضوضاء جعلت الملك يلتفت إلى كبير الحراس، - الذي كان قادما من خارج القصر- وهو يقول: ما الأمر؟ ما الذي يحدث بالخارج؟

قال كبير الحراس في تلعثم: كارثة يا مولاي .

قال الملك في غضب: تحدَّثْ على الفور .

ردَّ كبير الحراس قائلا: الطوفان والظلام يا مولاي .

صمت لحظة قبل أن يقول: طوفان جامح من المياه يأتي على الأخضر واليابس، يجتاح البلاد يا مولاي، كما عمَّ الظلام كل الأماكن التي اجتاحها الطوفان .

قال الملك: وكيف عرفتَ ذلك ؟

كانت أصوات الناس بالخارج تتزايد وتقترب أكث،ر واشتبك الحراس مع جموع الناس التي جاءت لتقتحم القصر الملكي، فأشار الملك للحراس قائلا: كفي .. دعوهم يدخلون .

توقَّف الحراس عن منع الناس من الدخول، وامتلأت القاعة بجموع الناس الذين بدا عليهم الخوف والرعب، وتقدَّم أحدُهم من مجلس الملك وهو يقول: لقد اقترب الطوفان من هنا يا مولاي، لقد بلغ المنطقة الزرقاء، ولقد نجوت منه بالكاد وهو يواصل تقدمه .

انهار الملك فوق عرشه، وهو يقول: أيُّ لعنةٍ تلك التي نواجهها؟ أيُّ كارثةٍ حلَّت بالبلاد؟

قال الوزير: مولاي .. أعطني الإذن لأصدر الأوامر بإنزال الحواجز والسدود .

تمالك الملك رباطة جأشه، وهو يقول: تحرَّك على الفور أيُّها الوزير .

ثم هتف بكبير الحراس قائلاً بعد انصراف الوزير: ادعُ مجلس الحرب على الفور يا رجل.

****

كان يوما عصيبا لم يواجهوا مثله أبدا، وانطلقت مركباتهم الطائرة تحمل جموع الناس إلى الأرض الثانية، والتي كانوا يطلقون عليها أرض التوران نسبة للوزير توران الذي اكتشفها في إحدى رحلاته الاستكشافية، وبدأوا بنقل الأسرة المالكة أولا ثم العلماء وقادة الجيوش والمعدات وما تبقى من الشعب، وانهارت الحواجز والسدود، وأصبحت الأرض الثالثة تغرق في الماء والظلام، وامتلأت جنباتها بالوحوش المخيفة كريهة الرائحة، والثعابين الضخمة والتي بدت تسيطر على كل شيء، وانطلقت كائنات تشبه القرود في تشييد بناء عظيم مكان القصر الملكي وسط المياه، وانتهى البناء في سرعة حتى أن بناءه لم يستغرق سوى ثلاثة أيام فقط، وحملت الثعابين عرشاً عظيماً جلس فوقه ثعبان ضخم يحمل رأسا بشرياً وأربعة من الأذرع أمسك باثنين من ذراعيه بصولجان ذهبي، بينما أشار بذراعيه الآخرين لباقي أتباعه الذين كانوا ينحنون له في خضوع، واستقر بعرشه في مكان تمَّ تشييده خصيصاً لهذا الغرض، وتقدمت وفود الثعابين تعلن الولاء لسيدها، سيد عالم الظلام الذي قال بصوت كالفحيح: أريد أن أعرف أين رحلوا؟

أريدهم بأي ثمن . قالها لينطلق أتباعه لتنفيذ أوامره على الفور .

***

٢ ـ أرض جديدة

رغم اختلاف طبيعة أرض التوران عن أرضهم التي كانت منبسطة وممتدة على مدد البصر دون وجود انخفاضات أو ارتفاعات، فقد كان السطح مستويا على عكس أرض التوران التي كانت تحفها الجبال والهضاب من كلِّ جانب، كما كانت السهول المستوية التي تمرُّ عبرها الأنهار والبحار، ورغم أن أرض التوران كانت ذات طبيعة جغرافية خاصة و تضاريس صعبة إلا أن ذلك لم يفت في عضدهم شيئا، وبدأ العمل على قدم وساق، كان الجميع يعمل في جدية، وفي غضون أيام أصبحت أرض التوران عالما آخر..

أصبحت قطعة من الجنة؛ فقد استطاع الناجون من الأرض الثالثة من تشييد المباني الضخمة، والقلاع، والحصون، وانتشرت الحدائق المزهرة التي قاموا بإنشائها، والتي كانت تزين جنبات المكان، ولأنهم شعبٌ اعتاد النظام فقد استطاعوا إعمار أرض التوران في فترة وجيزة، كما قاموا بتقسيمها إلى مقاطعات، ومناطق، وانتشرت الجيوش في كلِّ مكان، وانطلق العلماء في مراكزهم البحثية يعيدون دراسة ما حدث، وراحت قريحتهم تنتج العديد من الأجهزة والأسلحة، وراح الملك زيجا يعطي أوامره بضرورة تكثيف الحماية عند بوابة العبور من وطنهم السابق إلى وطنهم الحالي، كان شعورا غريبا بالخطر يسيطر عليه؛ لقد كان موقنا من أن الخطر لم ينتهِ بتركهم وطنهم وعالمهم الذي ألفوه بل إنه لم يبدأ بعد، لكن بعد تجارب عدة أجراها علماؤه استطاعوا غلق بوابة العبور التي كان يبلغ قطرها عدة كيلو مترات بمعدن قوي استطاعوا إنتاجه بعد سلسلة من التجارب التي قاموا بها، والتي استطاعوا من خلالها دمج العديد من المعادن لينتج لهم ذلك المعدن العجيب الذي جمع بين الصلابة والمرونة في آن واحدٍ، كما كانت له خاصية فريدة جعلتهم يرون الجانب الآخر بينما يعجز من في الجانب الآخر عن رؤيتهم، وقد استطاعوا اختبار ذلك عن طريق عملية انتحارية قامت بها فرقة مقاتلة محدودة العدد تلقت تدريبات واسعة ومكثفة استطاعت اختبار ذلك الأمر بنفسها قبل العودة مرة أخرى، ولم يقتصر الأمر على غلق البوابة بهذا المعدن العجيب فقط بل قام العلماء بتركيب أجهزة أخرى كانت لها القدرة على تبخير المياه في سرعة رهيبة مهما كانت كميتها، ناهيك عن الأسلحة الأخرى الفتَّاكة والتي كان لها القدرة على الفتك ولو بحشرة صغيرة لا تُرى بالعين المجردة بعد أن يتم رصدها بأجهزة فائقة الحساسية، ورغم أن كل ذلك كان كفيلا بدفع شعور الأمان داخل الجميع، ودرء الشعور بالخطر

الذي جاءهم من الداخل وليس من الخارج كما كانوا يظنون، وبدأ الصراع بينهم وبين عمالقة يتجاوز الواحد منهم الأمتار الثلاثة طولاً كما كانوا يتميزون بقوة خارقة، لقد كان يشجيهم لون الدماء المُراقة على الأرض، إنهم أهل أرض التوران الأصليين ..

وبدأت عمليات الخطف، وانتشرت الجثث الملقاة بالطرقات، واشتد غضب الملك زيجا ووزيره توران، وانطلقت الجيوش للبحث عن السكان الأصليين، وقامت معركة كبرى انتهت بمذبحة بشعة راح ضحيتها العمالقة الذين أفنت أسلحة المقاتلين الوافدين لأرضهم معظمهم، وفرَّ مَن نجا منهم ليستقر به المقام داخل كهف جبلي بعيد، كما استطاعت جيوش الملك زيجا أسر الكثير منهم، وخضع الأسرى لتجارب العلماء الذين استطاعوا معرفة لغتهم، ومعرفة نقطة ضعفهم، لقد كانوا لا يستطيعون احتمال الموجات الصوتية الفائقة، ولا الأصوات العالية.

واستغلت جيوش الملك زيجا ذلك على الوجه الأكمل، وانطلقت الموجات الصوتية الفائقة عبر أجهزة دقيقةٍ فائقةٍ تمَّ صنعُها لتخرج جموع الفارين من العمالقة أصحاب أرض التوران، ووقع الجميع في الأسر، واستطاع العلماء عمل برمجة آلية لعقول العمالقة استطاعوا بها السيطرة عليهم، وصار انتماء العمالقة وولاؤهم للملك زيجا، وانتقلوا لخانة العبيد، فصاروا يتقدمون الجيوش والبعثات الاستكشافية حتى إذا ما كان هناك خطر أصابهم وحدهم، كما صاروا هم من يعتنون بالأرض ويُفلحونها، وراح عدد كبير منهم ضحيةً للتجارب السرية التي كان يُجريها العلماء على الأسلحة الجديدة التي كانوا يبتكرونها، ويريدون معرفة مدى فاعليتها، كما كانوا يخضعون لرقابة شديدة تحصي عليهم أنفاسهم، فإذا نجحت مجموعة منهم من التخلص من السيطرة العقلية، ومحاولة التمرد، والاستقلال، واسترداد الحرية كان مصيرها الموت، فقد كانوا يفتقدون وجود قائد يتوحدون تحت لوائه؛ لذا فقد باءت كلُّ محاولاتهم بالفشل، فكانوا يعاملون بلا هوادة أو رحمة دون مقدرةٍ منهم على الردِّ أو المواجهة .

****

كان عقل سلام يستنكر كل ما يراه، كان هناك ألف سؤال وسؤال يتمنى معرفته؛ لذا فقد تحرر عقله من سيطرة أميرة العقلية، ووجهه يتصبب عرقا، وهو يقول لها: وما علاقتنا نحن بذلك؟ لماذا قاموا بمهاجمتنا رغم أننا لم نصبهم بأيِّ ضرر؟ كما أننا لا نعرف عنهم شيئا .

تنهدت أميرة، وهي تقول: صبراً يا سلام، ستعرف كل شيء في وقته .

قاطعها سلام قائلا: هيا يا حبيبتي، لا وقت لدينا لسماع القصص التي لن تفيد في الأمر شيئا، لابد من سرعة الفرار من هنا.

همت أميرة بالردِّ لولا أن رأت المبنى الذي يختبئون فيه يضئ إضاءةً خافتةً لا يلاحظها إلا مَن اعتادها، حتى أن سلام لم يلاحظها، فقالت وهي تنهض من مكانها، وقد ارتسم على ملامح وجهها الجزع والخوف، وهي تجذبه من يده: هيا يا سلام؛ إنهم بالخارج .

قال سلام الذي نهض واقفا: مَن هم ؟ وكيف عرفتِ؟

قالت: لا وقتَ للشرح، لا بد من الفرار؛ حتى لا نقع في الأسر، إنهم يحيطون بالمبنى من كلِّ جانب .

قال سلام: وكيف سنستطيع الفرار إذا كانوا يحاصرون المكان؟ إذن لا سبيل أمامنا إلا المواجهة.

كانت أميرة تبحث أرضية المبنى في دقة، وهي تقول: ساعدني في العثور على النفق، فمثل هذه المباني بها أنفاقٌ للهرب في حالات الخطر.

انضم سلام إليها، وراحت عيناه تجوبان المكان بحثا عن مخرج النجاة، وقبل أن يتحرك خطوة أخرى شعر بالأرض تتحرك تحت قدميه، فقفز جانبا وصاحت أميرة: لقد ضغطتَ على النقش دون أن تدري يا سلام، يا لنا من محظوظين، لقد عثرنا على المخرج .

قالتها وهما يحدقان في باب النفق الذي بدأ يُفتح على مصراعيه، في نفس اللحظة التي بدأت فيها جدران المبني في الاهتزاز في عنف، كما بدأت الأرض تهتز تحت أقدامهم، لم تنتظر أميرة ذلك، وقفزت داخل النفق، وهي تقول: أسرع هيا يا سلام؛ لقد قرروا هدم المبني فوق رؤوسنا.

قفز سلام خلفها، وبدأ الباب يغلق خلفهم في نفس اللحظة التي تخلَّت فيها جدران المبنى عن مقاومتها فبدأت في الانهيار، قال سلام الذي كان يعدو خلف أميرة داخل النفق الذي بدا ممتدًا بلا نهاية، وقد بدأ يشعر بالتغيير يعتريه؛ فها هو يرى رغم الظلام الذي يخيم على المكان، فأدرك

أن هذه القدرة اكتسبها من التجربة التي عاشها، فقال لها: لكن يا حبيبتي أخشى أن يكونوا في انتظارنا عند المخرج الآخر؛ فمؤكد أنهم يعلمون ذلك؛ فهم صانعوه .

قالت أميرة: سيقضون وقتا في البحث عنا بين الأنقاض و..

انقطعت كلماتُها فجأةً، واختفت عن ناظري سلام الذي صاح بصوت مرتفع، وهو يواصل عدوه بنفس السرعة: أميرة .. أين أنتِ؟

كانت جنبات المكان تُردد صدى صوته، ولكن ما من مجيب، وأدرك سلام أين اختفت زوجته، لكن بعد فوات الأوان؛ فقد وجد نفسه يسقط داخل حفرة عميقة وهو يحاول التشبث بأيّ شيء، لكن دون جدوى، وواصل جسده هبوطه لأسفل، ووجد نفسه يغوص وسط المياه في نفق آخر أسفل النفق الذي كان يسير فيه، وجرفت المياه التي كانت تندفع للأمام جسده في قوة جعلته لا يتمكن من الوقوف، وعلى بعد عدة أمتار رأى أميرة التي كانت المياه تجرفها مثله، حاول أن يناديها لكن كانت كلماته تختفي تحت هدير المياه، ووجد نفسه خارج النفق الذي بلغ نهايته، وجسده يواصل اندفاعه للأمام بفعل القصور الذاتي، ونظر لأسفل فأصابه الرعب؛ فقد كان ما يحيط به ظلام دامس لا يرى من خلاله شيئاً، وشعر بقشعريرة قوية تسري في أوصاله، وجسده ينتفض في عنف فقد أدرك أنه انتقل إلى عالم آخر وأرض أخرى .

****

أطلقت سلمي زفرة حارة، وهي تنظر بعيون دامعة نحو جسد جميلة الذي كان يواصل انتفاضه في شدة منذ عودتها من الواحة بعد أن تمَّ إنزالُها للبئر ليسبح جسدها في مياهه أملا في أن تمنحها الحياة، لكن زاد الأمر سوءاً وها هي سيدتها تقضي لحظاتها الأخيرة، كان يؤلمها شعورها بالعجز؛ فلم يكن بيدها شيء تقدمه لسيدتها دون أن تدري أن عقل جميلة يعيش في عالم آخر، بدأ بنزول جسدها للبئر ولم ينتهِ بخروجها منه، بل ظل باقيا معها، فقد وجدت جميلة نفسها تغوص في أعماق البئر السحيقة والتي لا يبدو لها قرار، كانت توقن أنها هالكة لا محالة، لم تكن تدري أن اثنين من العمالقة قد اندفعا خلفها، لم يكن هناك شيء يعنيها، لكن سرت القشعريرة في جسدها فور رؤيتها للعملاقين يمران بجوارها، وقد أحاطت بجسديهما فقاعةٌ شفافةٌ منعت يديهما من استلال سيفيهما والانقضاض عليها، أدركت أن جسدها أيضا مُحاط بفقاعة شفافة، إذن هذا هو سر عدم شعورها برودة المياه، وعدم ابتلال ملابسها، ما سر هذه الفقاعات العجيبة؟ أي أرض تلك التي تحيا فيها، كان يسيطر عليها شعور غريب بأنها أرض لا تنتمي لعالمهم،

كانت تتابع ببصرها العملاقين الذين اختفيا فجأة ودون أي مقدمات، كما وجدت نفسها تندفع لأعلى، وجسدها يطير في الهواء قبل أن يستوي على الأرض، وقد خففت الفقاعة التي كانت تحيط به من عنف الصدمة قبل أن تتلاشى تماما، لقد وصلت لنهاية المطاف إذن، وجدت نفسها تعود لنفس العالم الذي جاءت إليه من قبل، نفس الأشجار الضخمة والمباني شاهقة الارتفاع، لقد كان البئر بوابة العبور لهذا العالم العجيب، استطاعت السيطرة على مشاعرها في سرعة عجيبة وهي تنهض متجهة نحو المبني الأبيض العملاق، وهي تتلفت حولها في حذرٍ خشية الظهور المفاجئ للعملاقين الذين اختفيا فجأة، وداخلها احتلت صورة والدها أعماقها فخفق قلبها وهي تتذكر كل ما مرَّ بها في هذا العالم العجيب، كان بداخلها شيء يجعلها موقنة من أنها ستلقاه هناك داخل المبنى الضخم، لكن تسمَّرت قدمها فجأة وكفَّت عن المسير، وداخلها مات كل أمل في اللقاء؛ فأمامها دوَّت الانفجارات، واندلعت النيران من المبنى الذي انهار تماما وأصبح أثرا بعد عين، ثم ساد الصمت التام، لحظتها فقط أدركت أنها وحيدة في هذا العالم، مسحت دمعة سقطت من عينها قبل أن تواصل سيرها بلا هدى، كانت تسير وقد سيطر الخوف والرعب عليها، وحفيف الأشجار زادها خوفاً، لكنها شعرت بيدٍ تجذبها للداخل قبل أن تختفي خلف الأشجار الكثيفة التي كانت تحجب الرؤية عن الأنظار، شهقت جميلة في فزع وهي ترى نفسها أمام كائنٍ شفاف الجسد غريب الهيئة وهو يجذبها نحوه، فوجدت نفسها وسط الأشجار بعيداً عن الطريق الرئيسي، وقبل أن تصرخ في فزع بعد اختفاء الكائن الغريب الذي لم يبدُ له أي أثر كتمت صرختها في أعماقها، والخوف يسيطر على عقلها بعد رؤيتها للعملاقين يمران بالطريق الرئيسي شاهري السيوف، وعيونهما تجوب المكان بحثاً عنها، وتنفست الصعداء بعد أن واصل العملاقان تقدمهما مبتعدين عن المكان الذي تختبئ فيه، وبعد أن اطمأنت لذلك أخذت تجوب المكان ببصرها بحثاً عن الكائن غريب الملامح عجيب الهيئة، وجسدها يرتجف من الرعب، مستحيل أن يكون ما مرَّ بها وهم، مؤكد أن هذا المكان مسكون بالأشباح، ازداد ارتجافها عند ذكرها الأشباح، وقبل أن تنكمش في مكانها ودقات قلبها المضطربة تزداد ارتفاعا وصوت أنفاسها يعلو أكثر وجدت نفسها تُحدِّق بالطريق وهي تقترب منه لا إراديا أكثر، فأمامها هبَّت عاصفة محدودة سرعان ما اختفت، وأمامها انشقت الأرض التي اهتزت في عنف جعلها تطلق صرخة خوف لم تستطع منعها، وثارت العاصفة مرة أخرى، وجسدها ينتفض أكثر، وهي تكاد تفقد عقلها، وانطلقت زمجرة عنيفة من العملاقين وهما يلتفتان خلفهما جعلها تدرك أنهما اكتشفا مكانها وأنهما عائدان للانتقام منها،

واختفى الغبار، وأمامها رأت عشرة من الفرسان يمتطون جيادهم وهم بكامل عتادهم بعد أن لفظتهم الأرض التي انشقت أمام عينيها قبل أن تعود لطبيعتها مرة أخرى، وأمامها اتضحت الصورة أكثر؛ فلم يكن الفرسان سوى حسان كبير فرسان قبيلتها ومعه تسعة من الفرسان، وجدت نفسها تهتف باسمه بصوت مرتفع لكنه لم يلتفت إليها؛ فقد كان مشغولا ومن معه من فرسان بالعملاقين الذين كانا قادمين في اتجاههما، وقد حملا سيفيهما، والتحمت السيوف في معركةٍ ضارية، كان حسان ومن معه يدرك جيداً أن المواجهة المباشرة تعني الموت والهزيمة، ورغم أنهم لم يفيقوا من هول المفاجأة التي مرَّت بهم فقد استطاعوا السيطرة على مشاعرهم وانفعالاتهم، كما استطاعوا تنظيم صفوفهم في سرعة وهم يتبادلون نظراتٍ خاصة ذات مغزى يفهموه جيدا ساعدهم في ذلك جيادهم التي ألفت الصعاب والمخاطر وألفت حياتهم؛ فكان هناك توافق كبير بينهم، واندفع أحد الفرسان نحو الجانب الأيمن للطريق، واندفع فارس ثان نحو الجانب الأيسر، واندفع نحوهم العملاقان، وطوَّح أحدهما سيفه الذي رفعه عاليا في وجه فارس الميمنة الذي تقهقر بجواده جانباً في سرعة فهوى سيف العملاق الذي زمجر في غضب في الفراغ، وقبل أن يعاود العملاق الكرَّة مرة أخرى أطلق حشرجة من حلقه بعد أن تمكن أحد الفرسان من تسديد سهمه الذي اخترق حلق العملاق الذي سقط جثة هامدة وهو ما دفع العملاق الثاني لرفع سيفه في قوةٍ هاويا به نحو فارس الجانب الأيسر الذي حاول التراجع بجواده للخلف، لكن سبق السيف العزل، وأصاب السيف قائمي الجواد الأمامية اللذين طارا بعيدا، وسقط الجواد بالفارس، ورفع العملاق سيفه لأعلى وهو ينوي حصد رأس خصمه، لكن ظل سيفه معلقا لأعلى وهو شاخص البصر، وتعلقت عيون حسان وفرسانه لأعلى؛ فأمامهم كانت كرة شفافة تهوي فوق رأس العملاق الذي شهق في رعبٍ، ومسَّت الكرة الشفافة سيف العملاق الذي ارتجف جسده في عنف، وبدأت الأبخرة تتصاعد من جسده الذي انطلقت منه رائحة الشواء، وبدا كأن صاعقة من السماء أصابته فتلاشى جسده تماما، وسقط سيفه أرضاً، وواصلت الكرة الشفافة انطلاقها نحو الأرض التي ما أن اصطدمت بها حتى تلاشت، وسط ذهول حسان، وفرسانه، وجميلة التي اندفعت وسطهم.

*****

٣ ـ أرض الثعابين

منذ اللحظة الأولي لسقوطها داخل الحفرة أدركت أميرة أن هذه الحفرة هي الطريق إلى أرض الثعابين، وهو ما جعل الرعب يدبُّ في أعماقها؛ كانت تخشي أن تذهب وحدها إلى هناك، وتفقد سلام زوجها وحبيبها مرة أخرى، ورغم محاولاتها المضنية في استخدام قدراتها العقلية الفائقة التي اكتسبتها من طول فترة بقائها في هذا العالم لكنها لم تفلح في ذلك، وذهبت كل محاولاتها هباءً، كان جسدها يواصل اندفاعه للأمام، وشعرت بسلام خلفها، لقد أدركت ذلك من خلال قدراتها، لقد سقط في الحفرة مثلها، عملت جاهدةً على الاتصال العقلي به، ونجحت وعاد سلام لذلك العالم الغريب مرة أخرى، دون أن يدري كيف تمَّ ذلك؟

*****

- كارثة يا مولاي

اندفع كبير الحراس المكلفين بمراقبة بوابة العبور إلى عالمهم السابق، وهو ينطق عبارته السابقة داخل اليهو الملكي، وينحني أمام ملكه زيجا الذي انتفض جسده في عنف، وهو يقول: أيُّ كارثةٍ؟ تكلم يا رجل.

قال كبير المراقبين، وهو يتلفت حوله في رعب: لقد بدأت المياه ترتفع يا مولاي حتى بلغت البوابة التي صنعها علماؤنا.

قال الوزير توران: وما الكارثة في ذلك يا رجل؟ لقد كان علماؤنا يتوقعون ذلك .

قال كبير المراقبين ويدعي جام: المياه تواصل ارتفاعها يا سيدي، والبوابة تهتز في عنف يجعلنا نوقن أنها لن تحتمل ذلك كثيرا .

صاح الملك: لماذا لم تطلقوا أجهزة تبخير المياه؟ و..

رغم أن الأمر كان غير لائقٍ إلا أن خطورة الأمر جعلت جام يقاطع الملك زيجا قائلا: لقد فعلنا يا مولاي، ولكن الأجهزة لم تعمل.

قال الملك الذي بدأ يستشعر خطورة الموقف: وأين العلماء المختصين بأمر البوابة؟

قال جام: هناك طاقمٌ كامل من العلماء يحاولون تشغيل الأجهزة، لكن دون جدوى، ولما كان الأمر خطيراً؛ فقد جئت لأبلغ جلالتك.

صمت الملك برهةً، وهو يتبادل النظرات مع الوزير توران، وقبل أن يتفوَّه بحرفٍ واحدٍ اندفع كبير العلماء الذي انحني في تبجيلٍ أمامه قبل أن يقول: لقد قمنا بمعالجة الأمر يا مولاي.

شعر الملك بالاطمئنان، فجلس على عرشه، وهو يشير لكبير العلماء بالجلوس، قبل أن يقول الوزير توران والذي بدا على وجهه الشحوب: وكيف استطعتم معالجة الموقف يا كبير العلماء؟ قال الأخير: لقد كانت هناك ذبذبة قوية تُعيق عمل أجهزتنا، فقمنا ببث ذبذبة أخرى مضادة للذبذبة التي كانت تنطلق من عالمنا السابق، فحدث التعادل بين الذبذبتين، وعندها انطلقت أجهزتنا، وتبخرت المياه، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي.

كانت المفاهيم العلمية التي يتحدث بها كبير العلماء غير مفهومة للملك أو الوزير، لكن الملك قال في هدوء بعد أن شعر بالسكينة: المهم أن الخطر قد زال يا كبير العلماء .

هزَّ الأخير رأسه، وهو يقول: نعم يا مولاي، لقد زال الخطر ولكن ..

قال الوزير في حدة مقاطعا إياه: ولكن ماذا يا رجل؟

قال كبير العلماء بعد ترددٍ، وهو ينظر للملك زيجا: وجود الذبذبات يعني وجود كائنات عاقلة.

قاطعه الوزير في غضبٍ: أيُّ عبثٍ هذا الذي تقوله يا رجل؟ كائنات عاقلة ! وكيف لهذه الكائنات أن تحيا وسط الماء والظلام؟ أيُّ جنونٍ هذا الذي أصابك؟ هل أثرت الذبذبات على قواك العقلية وسلامتها؟

بدت ثورة الوزير وغضبه غير مُبررة أمام الملك وكبير العلماء الذي تجاهل الأمر برمته، وهو يقول: إن هذه الكائنات ليست عاقلة فحسب بل أنها وصلت لقدر كبير من التقدم والتطور. صمت لحظة، ثم أكمل في حدةٍ : هل نسى الوزير توران كيف خرجنا من عالمنا ؟ وهل نسى الوزير كل ما لاقى شعبُنا من أهوال ؟

قالها ليسود الصمت برهةً، وقبل أن يواصل الوزير حديثة الغاضب، أشار إليه الملك وهو يرمقه بنظرةٍ خاصة، وهو يقول: أيُّها الوزير توران، فلتسبقني إلى موقع البوابة، وانتظر هناك .

دار الوزير على كعبيه، وهو يغادر المكان قائلاً في لهجةٍ عسكرية: أمر مولاي .

ما أن انصرف الوزير توران حتى نهض الملك زيجا متقدماً نحو كبير الحراس، وهو يهمس بأذنه بكلماتٍ خافتة، غادر بعدها كبير الحراس المكان ومعه مجموعة من الحرس، ثم أشار لكل

الموجودين بالانصراف؛ فقد كان يودُّ أن يكون حديثة مع كبير العلماء سرياً، ثم أشار إلى الأخير قائلا: ما الحل يا كبير العلماء؟

تنحنح كبير العلماء قبل أن يقول: منذ حدث ما حدث يا مولاي واضطررنا لمغادرة وطننا الحبيب، ومنذ قدومنا إلى الوطن البديل، وعكفت مجموعة من أفضل علمائنا تحت إشرافي شخصيا، ونحن نفكر في كلِّ ما حدث، ولقد توصلنا يا مولاي لوجود كائنات عاقلة أثارها قدوم بعثاتنا العلمية إلى مقرها فحدث كل ما حدث .

صمت كبير العلماء لحظة التقط خلالها أنفاسه، وكان واضحا من معالمه التردد، وهو ما دفع الملك لحثه على مواصلة الحديث قائلا: أكمل يا رجل، وقل كلَّ ما توصلتم إليه، ولا تخشى شيئاً .

قطعت كلمات الملك ترده فقال: لقد تمكنت مجموعة العلماء من صُنع بوابة أكثر قوة من البوابة الأولى التي تغلق طريق المرور إلى عالمنا الجديد .

قال الملك: حسنا فعلتم يا رجل، هكذا يكون العمل .

انتظر كبير العلماء حتى انتهى الملك من كلامه، وقال: ليس هذا فحسب يا مولاي، لكن تمكن علماؤنا من صنع قنبلةٍ ضخمةِ الحجم يمكنها القضاء على كافة صور الحياة في أيِّ مكانٍ تُلقى فيه خلال ثوانٍ معدودة .

أدرك الملك ما يرمي إليه كبير العلماء، لكنه قال وهو يريد أن يتيقن من مدى فهمه للأمر: - - أوضح يا كبير العلماء .

اندفع الأخير قائلا: ننتظر أوامر مولاي للبدء في تركيب البوابة الجديدة على ارتفاع خمسة كيلو مترات من البوابة القديمة، ثم نقوم بعدها بوضع القنبلة بعد ضبطها على الوقت الذي نريده للانفجار، ثم نقوم بفتحها لتسقط القنبلة في عالمنا القديم، ثم نغلق البوابة مرة أخرى .

عقد الملك حاجبيه، وهو يفكر قبل أن يقول: الأمر خطيرٌ يا كبير العلماء، ربما حدث عطل في البوابة القديمة ساعتها ستكون العواقب وخيمة .

اندفع كبير العلماء قائلا في حماس: ليس هناك ما يدعو للقلق يا مولاي؛ لقد قمنا بعمل اختبارات عدة تأكد لنا خلالها قدرة البوابة الجديدة على احتمال قوة الضغط الهائلة للانفجارات التي ستولدها القنبلة .

قال الملك: وما الذي يمنعكم من التنفيذ حتى الآن؟

قال كبير العلماء: لقد قمنا بعرض الأمر على الوزير توران الذي رفض الأمر تماما، مبررا ذلك بخشيته حدوث كارثة رغم حضوره كل الاختبارات التي قمنا بها .

قال الملك: لا عليك يا رجل، سأصدر أمرا ملكيا بذلك، وليبدأ التنفيذ على وجه السرعة .

قال كبير العلماء: بقي أمرٌ واحد يا مولاي .

قاطعه الملك قائلا: ما هو ؟ تحدث على الفور.

تنحنح كبير العلماء قبل أن يقول: إن اكتشاف هذه الكائنات للذبذبات التي تطلقها أجهزتنا قبل عمل هذه الأجهزة فعليا .

صمت كبير العلماء لحظةً، وهو ينظر إلى الملك زيجا في خوفٍ، قبل أن يقول الأخير: ماذا تعني؟ أوضح ما تريد قوله .

قال كبير العلماء: إن فئة محدودة هي مَن تعرف كلَّ ما يتعلق بأمر تسليح بوابة المرور وطرق حمايتها، وهذا يعني وجود خائن يا مولاي .

نزلت كلمات كبير العلماء على رأس الملك زيجا كالصاعقة التي زلزلت كيانه، فظل برهةً صامتا لا يقوى على الكلام، وقبل أن يعتدل الملك من جلسته على عرشه الذي تهاوي إليه

انطلق خيطٌ من الأشعة نحو كبير العلماء الذي سقط على مقعده، وقد ألجمته المفاجأة، فعجز عن الحركة، لم يكن يخشى الموت بالأشعة التي انطلقت للتو والتي انحرفت عن مسارها وعلى بعد سنتيمترات قليلة من رأسه، قبل أن تتلاشى في فراغ الهو؛ فقد كان هو مَن أشرف على أنظمة الأمن بالقصر الملكي، ويعرف كل تفاصيلها، كان يعلم وجود أجهزة قام هو بتصميم بعضها تحيط بدائرة طولها ثلاثة أمتار حول عرش الملك مهمتها امتصاص الأشعة وتشتيتها.

كما كان يعلم أن أرضية القصر قد تم تصميمُها وفق نظامٍ خاصٍ لا يعلمه إلا القليل..

فما أن انطلقت الأشعة نحوه، وعملت تلك الأجهزة على امتصاصها وتشتيتها في الهواء، وقبل أن يعاود مهاجمه تصويب سلاحه نحو الملك زيجا الذي كان يُحدِّق فيه بدهشة، وقد ألجمته المفاجأة والذهول وهو يقول: أنت !! هذا آخر شيء كنت أتوقعه .

قالها في نفس اللحظة التي تحركت فيها الأرضية تحت قدمي مهاجمه، الذي وجد نفسه يغوص لأسفل، وقد سقط سلاحه إثر الهبوط المفاجئ، وأصبح لا يظهر سوى رأسه، وقد أحاطت به الأرضية، فأصبح عاجزاً عن الحركة، وقد سقطت خيوط رفيعة من الضوء الأزرق فوق وجهه، بينما شعر بقشعريرة تسري في جسده، ونفس خيوط الضوء تحيط بجسده الواقع أسفل

الأرضية، فقد كان واضحا أنه يخضع لعملية فحص أمني دقيقة، تمَّ خلالها التأكد من أنه لا يحمل أسلحة أخرى، وضغط الملك على زرٍ جانبي بالجانب الأيسر من عرشه، وانطلقت صفارة الإنذار تدوّي في المكان، وهرع على إثرها عددٌ كبيرٌ من الحراس الذين هالهم المشهد، فتقدم ثلاثة منهم نحو الملك، وكبير العلماء الذي كان يلتقط أنفاسه في صعوبة، قبل أن يقول أحدهم وهو ينحني أمام الملك زيجا: جلالتك بخير.

أجابه الملك وقد عصف به الغضب، وهو يشير للحراس الذين أحاطوا بمهاجمه من كلِّ جانب بعد أن تلاشت خيوط الضوء، ليظهر بدلا منها ضوء أحمر ألقى بظلاله على المكان، قبل أن يختفي ويصدر أزيزاً متقطعاً: ابتعدوا أيُّها الحراس .

لم يكن الحراس بحاجة لأمره؛ فقد أدركوا أنه هناك خطر يحيط بهم، لقد كان ظهور الضوء الأحمر وذلك الأزيز المتقطع يعني ذلك، فانطلق الحراس يعدون في كلِّ اتجاه، في نفس اللحظة التي قامت الأجهزة الملحقة بالأرضية بقذف جسد المهاجم لأعلى، والذي بدأ جسده يتوهج وقد أحاطت به هالة حمراء من الضوء أخذت تزداد حدتها قبل أن تحيط به كرة شفافة، وأمام أعينهم دوَّي انفجارٌ محدود، لقد انفجر خصمهم في عنف، وأصبح أشلاء، ونجحت الكرة الشفافة في احتواء الانفجار المحدود بين جدرانها، وانهار الملك زيجا فوق عرشه؛ فقد كان وقعُ المفاجأة كبيرا عليه، كان صعبا على عقله استيعاب الموقف، وهو يرى خيانة وزيره المخلص توران وهو يحاول التخلص منه قبل أن يلقى حتفه .

****

ارتطم سلام بالمياه في عنف، وغاص جسده في أعماقها، ثم عاد ليطفو فوق السطح مرة أخرى،

عاد لواقعه مرة أخرى، وهو يسبح دون هدى محاولا الحفاظ على جسده فوق سطح الماء، ونظرة منه إلى المكان أدرك أنه انتقل لعالم جديدٍ يبعث الرعب في قلوب أعتى الرجال وأشجعهم؛ لقد كانت المياه تحيط بالمكان من كلِّ جانب، كما كان هذا العالم يغرق في ظلام دامس، فلا شمس، ولا قمر، ولا نجوم، فقط الظلام والماء ومبنى وحيد يبدو شامخاً فوق الماء تثير رؤيتُه الانقباض في الصدور، كان يبدو للناظر من بعيد أنه جمجمة كبيرة لوحش أسطوري تمَّ قتله وقطع رأسه التي بقيت منها الجمجمة بفعل الزمن، ولولا خيوط النار المنبعثة من المشاعل التي كانت معلقة بجوانب هذه الجمجمة، والتي كانت تلقي على جنبات المكان ظلالا تُثير الرعب ما

أدرك سلام أنه مبنى تمَّ تشييده في هذا الموقع الذي يبعد عنه قرابة الربع متر، كان جسده يرتجف رعبا، وقد تعبت ذراعاه من السباحة، لكن ما الذي بيده ليفعله؟ كما كان عقله مشغولا بأميرة وأي مصير تواجه؟ أين ذهبت ؟ المفروض أن المسافة بينه وبينها لم تكن بعيدة، كان يجوب بعينيه في المكان بحثا عنها، ولكن كيف سيمكنه العثور عليها في هذا الظلام الحالك الذي لا يستطيع أن يرى فيه يديه؟ كان يدرك أن الخطر كل الخطر يكمن خلف هذا المبنى الغريب، لكن ما من سبيل أمامه سوى التقدم نحو المبنى، وتسلق تلك الأسوار العالية التي تحيط به، يمم وجهه شطر المبنى، وبدأ العوم متوقعا انقضاض الوحوش عليه مع كلِّ مسافة يقطعها، لكن شيئا من هواجسه لم يحدث، وهو ما زاد من رعبه؛ فمؤكد أن هذا الهدوء والصمت الرهيب الذي يلقي بظلاله في هذا العالم، وتلك الروائح الكريهة التي كانت تنبعث من حوله، والتي ظنها روائح جثث كائنات وبشر تحللت وتعفنت في عهد سابق، كما أيقن أنه سيلقى نفس هذا المصير، مؤكد أن آخرين سبقوه إلى هذا العالم ولم يجدوا لهم مخرجا، أو ربما أن أهل أرض التوران قاطني هذا العالم سابقا تمكنوا من إلقاء القنبلة التي كانوا يعدونها لهذا الغرض، ونجح ما فكروا فيه، واستطاعت هذه القنبلة القضاء على كلِّ صور الحياة في هذا العالم، هزَّ رأسه رافضا الفكرة وهو يواصل العوم نحو المبنى الغريب، والذي بدأ يقترب منه وهو يقول لنفسه: لو أنهم نجحوا في إلقاء القنبلة وتمَّ القضاء على كلِّ صور الحياة في هذا العالم لما كان هناك وجود لهذا المبنى وهذه المياه التي يغرق فيها العالم من حوله، بل ولربما عادوا إلى وطنهم من جديد.. قطع أفكاره وهو يتسلق السور المحيط بالمبنى، كان الأمر شاقا له لكنه واصل تسلقه في إصرار حتى استطاع اعتلاء السور والجلوس على حافته برهةً، وهو يلتقط أنفاسه بعد المجهود الشاق الذي بذله، وأمسكت يده بحافة السور جيدا، وهو يقفز للجانب الآخر منه لكنها لم تحتمل ثقل جسده فوجد نفسه يهوي ويرتطم بالأرض، خففت الأعشاب من أثر السقطة فظل لحظات مسترخيا على الأرض، وهو يحاول كتم أنفاسه حتى يتأكد من عدم انتباه أحد لوجوده، ولما تبيَّن له ذلك نهض وهو يتحسس ملابسه، وقد شعر بالسعادة بعد أن أدرك أن سيفه ما زال بحزامه لم يسقط منه، وهبت الرياح التي كادت أن تقتلعه من مكانه فجأة، وهو ما دفع داخله الشعور بأن المواجهة قد بدأت فوقف متحفزاً، وهو يتلفت حوله وجسده يرتجف من البرودة القاسية التي يشعر بها مع ملابسه المبتلة، والرياح التي تضربه في قسوة، وانقضت عليه صاعقةٌ من السماء حاول الهرب منها، لكنها كانت تلاحقه قبل أن تنقض على جسده في عنف، كان يشعر بمطارقَ هائلةٍ تضرب رأسه، وشعر

بأنفاسه تضيق، وبخلايا جسده تتفكك قبل أن يغيب عن الواقع، كان في حلم عجيب؛ فقد اختفت المياه من أمامه، فقط ألوان متداخلة تمرُّ أمامه بسرعة، وفراغ ..

فراغ كبير لم يتبيَّن من خلاله شيء، ثم الظلام الأبدي، وعالم عجيب بدأت تنساب داخل عقله كل تفاصيله، كان يسبح في عالم سرمدي وأمامه بدا شخص كان يشعر بالألفة نحوه داخل نفقٍ مظلمٍ لا يبدو من معالمه شيء، لكنه رغم ذلك كان يمتلك القدرة على الرؤية جيداً في وسط هذا الظلام الذي يغلِّف المكان بالرهبة والرعب، لقد كان هذا الشخص يحاول مقاومة المياه التي كانت تدفعه للأمام في قوةٍ عجز معها عن مقاومتها، ووجد نفسه خارج النفق، وقد هوى جسده لأسفل في عالم يحيط به الفراغ فقط ..

عالم غريب ..

لا يشعر فيه بأي شيء ..

لقد تلاشت داخله كل المشاعر، فلا أحزان، ولا أفراح، ولا غضب، وارتطم جسده بالماء، وشعر بالبرودة تسري في أوصاله، كان يدور بعينيه في المكان، وأمامه بدا ذلك المبنى الغريب الذي كان يشبه الجمجمة، والذي كانت تضيئه المشاعل فأخذ يسبح نحوه في قوة حتى بلغ سوره الذي تسلقه في قوة وسرعة ليقفز إلى الجانب الآخر، وقبل أن يلتقط أنفاسه التفَّت مجموعةٌ من الوحوش بشعي الخلقة حوله، وهم يدفعونه في قسوة داخل المبنى ويصيحون بلغة لم يعرف حرفا واحدا منها، كان يشعر برعب شديد، ولكن شعوره هذا تحول إلى رجفة شديدة وهو يرى ذلك المسخ الذي هب واقفا فوق عرشه، وقد اتقدت عيناه غضباً فور رؤيته، فصاح بلغة غريبة وكأنما يعبر بها عن غضبه، وهو ينظر إليه، فأدرك أنه يتساءل عنه كيف قدم إلى هنا؟ ولماذا؟

شعر بخيط من النار يخترق رأسه، ونظرات ذلك المسخ موجهة نحوه، مَن أنت؟ وكيف أتيت إلى هنا؟ كان يشعر بأن هذا المسخ يسأله بلغة غير مسموعة، شيئ ما في أعماقه رفض الجواب، زاد غضب المسخ فشعر بلكمة قوية تصيبه كادت تشجُّ صدره، كان يحاول كتم الألم لكنه لم يستطع؛ كان الأمر فوق احتماله فندت منه شهقة عالية، واصل المسخ أسئلته دون جواب منه فزادت اللكمات والركلات التي كان يتلقاها دون أن يدري مَن الذي يصوبها له، فقد كانت المسافة بينه وبين المسخ ثابتة، سمع صوتا يخترق أعماقه وهو يقول: إذن ستكون مبارزة بيني وبينك، سيكون الموت من نصيبك.

وأمام ناظريه بدا سيفٌ معلقٌ في الهواء، التقطه في سرعة، والتفت الوحوش في شكل دائري مشكلين حلقة تمنع أي كائن من الدخول وسطها أو الخروج منها، اخترق سلام الحلقة ببصره ليرى داخلها ذلك المسخ بوضوح، والذي كان يبدو له وجها مبهما في بادئ الأمر، أخذ يتضح رويدا كلما اقترب من الحلقة أكثر، لقد كان كائنا غريب الشكل، كان ثعبانا ضخما يحمل وجه بشري مشقوق العيون كعيون الثعابين، صغير الأنف ذا وجه طولي له أربعة أذرع يمسك بكلِّ ذراع منها سيفا حادا انعكست تحته أنوار المشاعل التي كانت تملأ المكان، ووقف أمامه شخص كان ذا ملامح مألوفة له، كان قريب الشبه منه، بل إنه كان يشبهه تماما، إنه جده عدي والذي كان يمسك سيفا بتَّارا قويا، وتعالت الصيحات، وبدأت أغرب مبارزة رآها في حياته بين جده وهذا المسخ البشع، وأثبت جده أنه فارس مغوار لا يشق له غبار، والتحمت السيوف، وعلا صليلها، وكان جده كلما تراجع للخلف متفادياً طعنة سيف وجهها له غريمه دفعته أيدي تلك الكائنات البشعة للأمام مرة أخرى، كان يبدو أنها مبارزة لا يوجد لها سوى نتيجة واحدة، الموت لأحد الطرفين، الموت للخاسر، ولم تكن المبارزة عادلة؛ لقد كان ذلك المسخ الذي يواجه جده يمتلك قدراتٍ خارقة، فقد بدأ ينظر لجده الذي طار جسده قبل أن يرتطم بالجدار المقابل، ويسقط أرضا وهو يشعر بأن عظام جسده قد تكسَّرت كلها، وتقدم المسخ نحوه، وقد أفسحت له تلك المخلوقات الطريق ليواصل تقدمه نحو عدي الذي نهض في صعوبة، وقد صار ذلك المسخ على بعد مترين منه، وهو ينفث الهواء نحوه فشعر عدي برياح ساخنة تصطدم بوجهه وتكاد تشوي جسده قبل أن تخرج كرة من النار في اتجاهه انطلقت من فم ذلك المسخ، لكن عدي تفادها بالقفز جانبا دون أن يراها وهي ترتطم بالبقعة التي كان يقف أمامها منذ لحظات فتخترقها صانعة فجوة كبيرة محترقة الحواف، وقبل أن يعدو مبتعداً شعر بجسده يرتفع لأعلى، وهو يطير نحو المسخ الذي كان يصوِّب نظرات عينيه التي اكتست باللون الأحمر، فوجد نفسه يحاول أن يغمض عينيه، وقد سرى الرعب في جسده؛ فقد ازداد وجه ذلك المسخ بشاعةً،

كان لا يحتمل النظر إليه، لكنه لم يستطع وتنامي داخله الشعور بأنه هالكٌ لا محالة، كما كان يشعر بأنه فقد السيطرة على جسده كان يدرك أن هذا المسخ يمتلك قوة خارقة تمكنه من السيطرة على خصومة، الصمت يخيِّم على المكان، وكأنما خشيت تلك المخلوقات التنفس خشية أن يصيبها غضب هذا المسخ الذي كان يسلبه إرادته، كان يشعر بالعجز عن تحريك جسده أو

يده الممسكة بالسيف، كان المسخ يمنعه من ذلك، أدرك أنه يسيطر عليه بعينيه المتقدتين، كان جسده المعلق في الهواء يدنو من المسخ الذي استعدت سيوفه لتغوص في أنحاء متفرقةٍ منه،

إذا كان الموت آتٍ لا ريب، فلا بد من المحاولة، وانطلقت من حلقه صرخة حملت كل ما يجيش به صدره من انفعالات، جعلت نظرة الغضب تزداد في عين ذلك المسخ الذي تراجع للخلف، وأيقن عدي أن سيطرة المسخ عليه قد انتهت؛ فقد بدأ جسده رحلة الهبوط لأسفل فأمسك سيفه بكلتا يديه، وهو يهوي به لأسفل، وقد غاص السيف حتى غمده في رأس ذلك المسخ الذي أطلق صرخةً رددت صداها جنباتُ المبنى، وانخلع لها قلب عدي من الرعب، في نفس اللحظة التي ارتطم فيها بالأرض، وأمام عينيه انفجرت نافورة من الدماء من رأس المسخ الذي أخذ يدور حول نفسه بعد أن فقد توازنه، وهو يحاول الوصول إليه للانتقام، وصرخاته تعلو حتى تكاد تمزق أذني عدي الذي كان يواصل تراجعه للخلف زحفاً، وأمامه سقط المسخ أرضاً، وقد همدت حركته تماما..

وفي ظاهرة لم يرَ مثلها تلاشى جسد المسخ، واختفي تماما، تدلت فك عدي في دهشة؛ فما كان يراه عجيبا، فقد اختفت كل الكائنات التي كانت تحيط به منذ دقائق معدودة، كما بدأت المياه من حول المبنى في الانحسار، وبدأت الأرض تهتز من تحت قدميه، فنهض مسرعا وهو يحاول الوصول إلى بوابة المبنى الذي بدأ في الانهيار، ورغم تعثره أكثر من مرة استطاع الخروج من المبنى في اللحظة الأخيرة ليعدو مبتعدا، وقد استحال المبنى إلى كومةٍ من الأحجار، ووقف يتذكر تلك الصاعقة التي نزلت فوق رأسه، وما شعر به ساعتها من ألمٍ رهيب يسري في جسده الذي شعر أن خلاياه قد تفككت، وبأنه فقد الإحساس بكل شيء حوله قبل أن يفقد الوعي، كان يظن نفسه قد فارق الحياة، لكنه وجد نفسه مُلقى على الأرض، وهو يفتح عينيه في بطء وإعياء، وقد أغشاه الضوء المبهر الذي كان يحيط بالمكان، كان يتفحص المكان بدقة، كانت حديقة مليئة بأنواع غريبة من الأشجار التي لم يرَ لها مثيلا، نهض وهو يتطلع

حوله في ذهول غير مصدق لما يرى، كان يشعر أنه يحلم، إنه ليس حلماً بل كابوساً، أخذ يركض في كل اتجاه، وجسده يترنح من الإعياء، كان يبحث عن رفاقه، عن أي أثر يهديه إليهم، لكن لم يكن يبدو أمامه سوى مبانٍ ضخمة وأشجار عالية امتلأت بالثمار الغريبة التي مدَّ يده نحو إحداها ليقتطفها بعد أن شعر فور رؤيتها بالجوع والتهمها في نهم، وهو يواصل سيره تجاه المباني العملاقة التي كان يراها، وتوقف أمام إحداها وهو يتأمل بابه الموصد والذي فُتِحَ فجأةً ليجد

نفسه أمام عملاقٍ بشري ضخم الجثة وجها لوجه، والذي أصابه الغضب فور رؤيته، فاستل سيفه ورفعه لأعلى مطوحا به نحو وجهه، تراجع عدي للخلف متفاديا السيف، كانت عينه تنظر إلى الباب الذي كان في طريقه لأن يُوصد، لم يعرْ العملاق الذي أطلق زمجرة غاضبة أيَّ اهتمامٍ، وهو يواصل الكرَّة مرة أخرى رافعا سيفه نحوه، لكنه هذه المرة قفز جانبا متفاديا ضربة السيف ليجد نفسه أمام الباب، ودفع جسده بين مصراعي الباب قبل أن يغلقا خلفه فور دخوله المبنى، كانت الأحداث تجري في سرعة فقبل أن يلتقط أنفاسه شعر بالباب يُفتح، فاندفع يعدو داخل المبنى فقد أدرك أن العملاق قادم لملاحقته، ونظرة منه للخلف أدرك أن العملاق يعدو مطاردا إياه، وقد أمسك سيفه بكلتا يديه، وقد بدا الغضب على وجهه، وشعر عدي بالألم وقد داست قدمه على شيء بارز في الأرض التي اهتزت تحت قدميه قبل أن يسقط في هوةٍ عميقة، ورغم الألم الذي سرى في جسده إلا أنه نهض في سرعة دفعها إحساسه بالخطر، وهو يواصل عدوه للأمام، وشعر بجسده يسقط في هوةٍ عميقة مرة أخرى قبل أن يغوص جسده في الماء الذي ساقه إلى المبارزة التي خاضها مع ذلك المسخ الذي استطاع القضاء عليه منذ دقائق، ظل عدي واقفا مكانه برهة من الوقت لا يدري ماذا يفعل؟ ولا إلى أين يذهب؟ لكنه قرر السير في الاتجاه الجنوبي، كان المكان من حوله خاليا من أي أثر للحياة،

كان عالما يشبه أرض الأشباح، واصل سيره دون كلل رغم أن التعب بدأ يستبد به، كما بدأ يشعر بالجوع يقرصه، فكان يبحث حوله عن أي شيء يصلح للأكل دون أن يجد ضالته،

ومن بعيد بدت له بقعة مضيئة ألقت بظلالها على الأرض فأسرع يحثُّ الخطى نحوها، وهو يشعر أنها تحمل له طوق النجاة، ثم فكر قليلا وهو يقول لنفسه ربما حوت هذه المنطقة الخطر له، فبدأ يهدئ من خطواته حتى وصل إلى هناك وبصره معلق لأعلى، لقد كان شيئا عجيبا بالنسبة له أن يرى كرة كبيرة تتلألأ مضيئة المكان حولها بكل ألوان الطيف، فوقف واجما شارد البصر وهو يفكر في كيفية الخروج من هذا العالم العجيب الذي ساقته إليه الصدفة البحتة،

كان قد استبدَّ به التعب دون أن يجد عقله مخرجا لما هو فيه فجلس على الأرض، وقد بدا الإعياء على وجهه، وقبل أن يغط في نوم عميق شعر بصوت غريب فنظر لأعلى فرأى القبة الشفافة، وقد انفتحت على مصراعيها، وقبل أن يتحرك قيد أنملة شعر بخيوط من الضوء تحيط بجسده، وتكبله في قوةٍ فشل في مقاومتها، قبل أن يرتفع جسده لأعلى نحو المجهول .

******

٤ ـ الغريب

ظل زيد لحظات واقفا فوق جواده، وهو يبدو كتمثال من الشمع قبل أن يستعيد إحساسه بالزمان والمكان، وتهللت أساريره فرحا فور رؤيته لجميلة، ووالده حسان، والفرسان التسعة، فقفز في رشاقة من على متن جواده، وهو يحتضن والده قبل أن ينظر إلى جميلة في حنان، وقد خفق قلبه في قوة فأشاح بوجهه بعيداً، وهو يحاول السيطرة على مشاعره الفيَّاضة مقاوماً دمعة كادت تهرب من عينيه وهو يقول: لقد ظننتُ أننا لن نلتقي، يا لي من شخص سعيد .

بدا التأثر على وجوه الجميع، وحسان يقول: سعادتي أكبر يا ولدي .

قطع أحد الفرسان تلك اللحظات المؤثرة قائلا: ماذا سنفعل يا سيدي؟

لاذ حسان بالصمت، لكن جميلة التي لم تحاول سؤالهم عن كيفية وصولهم إلى المكان؛ فقد كانت تعلم أن كل شيء في هذا العالم يحدث فجأة ودون اختيار أو علم أحدٍ منهم؛ لذا فقد تجاهلت ذلك، بادرت بالجواب قائلة: سنسلك الطريق العكسي .

قال أحد الفرسان: أحسنتِ يا سيدتي، نفس ما فكرت فيه، سنولي ظهورنا للمباني، ونسير في عكس اتجاهها.

ما أن انتهى الفارس من نطق عبارته، حتى امتطى كل منهم صهوة جواده، واستعدوا للانطلاق في الطريق الذي حددوه، وأشار حسان لجميلة قائلا: هيا يا بنيتي، فلتمتطي صهوة جوادي .

وقفت جميلة مكانها دون أن تتحرك قيد أُنملة، وقد تعلقت بها عيون الجميع، وهي تقول: ولكن كيف سنغادر المكان دون البحث عن والدي؟

نظر إليها حسان في صمتٍ، قبل أن يقول زيد: المهم أن نخرج من هنا، وتعودي سالمةً إلى ..

قاطعته قائلة في حزم: لن أغادر هذا المكان قبل أن أعثر على والدي .

لم يجد حسان الذي كان يود الخروج معهم من هذا العالم والعودة لاحقا ليبحث وحده عن سيده بداً من الإذعان لرغبتها، فقال في صوت واهن: المهم أن تخرجي أنتِ يا بنيتي بخير من هذا المكان الملعون، ثم أعاود أنا ومجموعة من الفرسان و ..

قاطعته وهي تقول بنفس الحزم: سنبحث عنه معاً .

همَّ زيد بالحديث قائلا: ولكن ..

لكنها قاطعته في حزم: قُضِى الأمر .

وافقها الفرسان الرأي بإيماءة من رأسهم، بعد أن رأوا فيها نفس حزم وإصرار والدها، وقبل أن يتحرك أحدهم قيد أنملة أحاطت بهم كرة شفافة انبعثت داخلها الأدخنة خضراء اللون، قبل أن يسقط الجميع فاقدي الوعي، والكرة تدور حول نفسها في سرعةٍ رهيبة، قبل أن تختفي ويختفي معها الجميع .

****

تهللت أسارير ربيع كبير الحكماء فرحاً، وهو يقول: لقد استردت وعيها.

صاح مَن حوله في فرح، وهم يستمعون لكلماته، وسعلت جميلة في قوة، وهي تفتح عينيها في إعياءٍ قبل أن تقول، وهي تنظر لمَن حولها في دهشة: أين أبي؟ أين حسان؟

قال ربيع وهو يشير للوصيفات بالابتعاد آمراً إياهن بمغادرة المكان: اهدئي يا بنيتي، سيكون كل شيء على ..

قاطعته قائلة: كيف جئت إلى هنا؟

كانت قد أدركت إنها بمخدعها الخاص تتدثر بغطاءٍ ثقيلٍ، ورغم ذلك كانت تشعر بالبرودة تسري في أطرافها، كان جسدها ينتفض في رعب، كما كانت تشعر بإعياء شديد لكن كل ذلك لم يمنعها من السؤال عن والدها وحسان كبير الفرسان، كيف جاءت إلى هنا؟ وتلك الوحوش التي كانت تهاجمها، وتلك الكرة الشفافة التي أحاطت بجسدها، والدخان الذي انبعث من داخلها، ما هذا؟ أيُّ عبث ذلك الذي يحدث؟ كانت تشعر بالضباب يكتنف عقلها، كان هناك جزء مظلم داخل تلافيف مخها، قطع ربيع أفكارها وهو يقول: لقد عدتِ يا بنيتي، وعاد الفرسان، لقد كنتم فاقدي الوعي .

قالت جميلة، وهي تنظر له في ذهول: ولكن كيف؟ كيف ذلك؟

أجابها ربيع قائلا: لقد كان الجميع مصابا بالحمى، وأنت أول مَن استرد وعيه .

قالت، وهي تقاوم ذلك الدوار الذي اكتنف رأسها في صعوبة: وأين والدي؟

قال محاولا دفع الطمأنينة في نفسها، وهو ينظر لها في شفقة: إنه في رحلة صيد، ولم يعد حتى الآن، ولكن ذهبت كوكبة من ألف ..

لم يجد فائدة من إكمال حواره؛ فقد سقطت جميلة في غيبوبتها مرة أخرى.

*****

استردَّ سلام وعيه فجأةً، ليجد جسده ممدداً على الأرض، ونهض في فزع؛ فقد سمع صرخة امتلأت بالرعب تنطلق من داخل المبنى ارتجت لها جنباتُ المكان، كان يعرف صوت صاحبتها جيداً، إنها أميرة زوجته، ظل ينظر حوله في دهشة، وهو يحاول أن يتذكر كيف أتي إلى هذا المكان الغريب؟ بدا عقله مشوشا، وهو يتذكر الصاعقة التي انقضت عليه وجده عدي، وكيف وصل لهذا المكان، صرخة أخرى أطلقتها زوجته جعلته يتذكر كل ما مرَّ به، تذكر النفق الذي مرَّ به إلى عالم الماء والظلام، وجد نفسه داخل سور المبني الذي صممه أصحابه على هيئة جمجمة، كان قد اقترب من إحدى النوافذ من الجانب الخلفي للمبني، إذن لقد سبقته زوجته إلى هنا، نفض عنه التفكير وهو ينظر من النافذة إلى داخل القصر في حذر، قبل أن يدلف منها إلى الداخل، وهو يسير في عجلة بحثا عنها، مؤكد أنها تواجه خطرا ما، ورغم أن مشاعل النار كانت منتشرة في كل أرجاء المبني إلا أن الإضاءة كانت خافتة، ورغم ذلك كان يستطيع الرؤية جيداً، واصطدمت قدمه بشيء لين الملمس فشعر بالقشعريرة تسري في جسده وبخصلات شعره تنتصب واقفة، كان يشعر بأن دقات قلبه توشك أن تتوقف من فرط الرعب، لكنه رجع للخلف في حركة لا إرادية، وهو يمد بصره ليتبيَّن طبيعة الشيء الذي اصطدم به، وسرعان ما انحنى في جزعٍ نحوه، وهو يقول: حبيبتي أميرة .

لكن دون جواب، لقد كانت أميرة ملقاة على الأرض، وقد فقدت الوعي، وقبل أن ينجح في إعادتها للوعي شعر بقوة خفية ترفعه لأعلى، وبجسده يطير بعدها ليصطدم بأحد جدران المبنى، قبل أن يسقط أرضا وجسده يئن من شدة الألم، كان يقاوم فقدان الوعي، وأمامه بدا وحش ضخم الجثة يشبه الغوريلا، وقد برزت أنيابه الحادة خارج فمه، واتقدت عيناه التي بدت كجمرة مشتعلة، وهو يستعد للانقضاض عليه، دفع خوفه على زوجته وخشيته فقدانها مرة أخرى كمية كبيرة من الأدرينالين داخل عروقه، جعلته يشعر بالقوة وينسى آلام جسده التي كان يشعر بها، فنهض في سرعة، وذلك الكائن البشع يواصل تقدمه نحوه، واستل سلام سيفه في سرعة، وقبل أن يصل ذلك الكائن له أمسك بسيفه في قوة بكلتا يديه قبل أن يصوبه نحوه، ويقذفه بكلِّ ما أوتي من قوة، وغاص السيف في عنق ذلك الكائن البشع نافذا من الناحية الأخرى، وسقط قلب سلام من الرعب فقد واصل الكائن تقمه نحوه، وقد بدا كوحش أسطوري لا يموت، كان سلام يتراجع للخلف في خوف قبل أن يسقط الوحش الأسطوري جثة هامدة على بعد عدة سنتيمترات من قدميه، وقف سلام يلتقط أنفاسه، وهو غير مصدق أن هذا الوحش قد لقي حتفه، وجاهد

حتي استطاع انتزاع سيفه من عنق ذلك الوحش البشع، ثم تحرك بعدها في سرعة نحو زوجته التي كانت قد استردت وعيها، ووقفت في رعب تراقب صراعه مع ذلك الوحش الأسطوري، ليحتضنها سلام في حب، وهو يقول لها: لا تخافي يا حبيبتي، أنا معك ولن أتركك مرة أخرى.

ربتت على كتفه في حنان، وهي تقول:هيا بنا من هنا يا حبيبي، فلنغادر هذا المكان الملعون .

قال سلام، وهو يضمها إلى صدره: ولكن إلى أين؟

أجابته بصوت خافت، وهي تنظر حولها: إلى هنا.

كانت تشير لبقعة صغيرة تبعد عن المبنى عدة كيلومترات، أجابها سلام وهو ينظر إليها: ولكن لماذا؟ فلنبقَ هنا حتى نستريح من عناء ما واجهنا، ثم نبحث بعدها عن مخرج.

قالها وهو يتذكر الاتجاه الجنوبي الذي سلكه جده في الحُلم والقبة الشفافة، لكنها قالت في خوف وبصوتٍ مرتجف: لا بد أن نذهب إلى هذه الجزيرة على الفور؛ فقد بقي ساعة على قدوم المسخ .

وجد نفسه يتذكر الحُلم مرة أخرى، وكيف قتل جده ذلك المسخ، وظل سؤال يلح عليه دون أن يجد له جواباً، إذا كان جده قد تمكن من القضاء على ذلك المسخ البشع، فكيف تمكن من العودة مرة أخرى؟

انتزعه صوتها، وهي تجذبه خلفها من تساؤلاته، وتقول: هيا بنا يا حبيبي؛ لا وقت لدينا لنضيعه.

سار خلفها من بوابة المبنى الخلفية، والتي اجتازاها في سرعة، وعبرا الحديقة المحيطة بالمكان دون الالتفات حولهما، وساعد سلام زوجته في تسلق السور، والعبور إلى الجانب الآخر، ودون انتظار قفز خلفها، ووجد سلام وزوجته أنفسهما وسط الصحراء الممتدة على مدد البصر، والتي كانت تحيط بها المياه من كلِّ جانب، كانا يتبادلان النظرات وهما يقسمان في أنفسهما أنهما يريان هذا المكان لأول مرة، وأن أقدامهما لم تطأه من قبل، كما كانا موقنين من أنهما أصبحا خارج ذلك العالم الغريب الملعون، صمت رهيب ومخيف ساد المكان، قطعته أميرة وهي تقول: إنه الشيطان واتباعه مَن نواجهه .

صمتت لحظة ثم أردفت: ومَن سواه يستطيع أن يفعل ذلك؟

كان سلام الذي كان يحدق في دهشة حوله، وقد شعر أنه عبر إلى عالم آخر ومكان آخر يستمع إليها في ذهول، وهي تقول: أيُّ خطأ اقترفناه حتى يصيبنا بلعنته؟

قال سلام الذي كان يحاول أن يبدو هادئا رغم القلق والخوف الذي كان يعصف بأعماقه: هدئي من روعك يا حبيبتي؛ فأنا لا أعتقد أن للشيطان أي علاقة بما يحدث .

كانت نظرات الشك واضحة في عيونها؛ لذا فقد لزمت أميرة الصمت، وهي تفكر في كل ما مرَّ بهما، وقبل أن يتفوَّه أحدٌ منهم بحرف آخر، ثارت الطبيعة، وارتفعت الأمواج عدة أمتار لأعلى حتى ظنوها ستواصل ارتفاعها حتى تبلغ عنان السماء، قبل أن تتوقف برهة، وتعاود انحدارها هابطة لأسفل، وهي توشك أن تغطي جسديهما، قبل أن يسقطا أرضا وأجسادهما تئن من الألم، وقبل أن يحاولا النهوض غطت المياه جسديهما، قبل أن تجرفهما نحو الأعماق، وهي تغطي المكان، وانهمرت السماء، وهطلت المياه في غزارة بعد أن فقدوا السيطرة على أجسادهما التي كانت تحركها المياه كأوراق شجر أصابه الجفاف، وأمام عيونهما بدت عشرات المخلوقات العملاقة التي فتحت فكيها لتلمع أنيابها الحادة تحت ضوء الشمس، وقد غطى أجسادها اللزجة حرافيش صلبة كانت تسيل منها مادة لزجة أحاطت بهما في سرعة، وهي تلتف حول أجسادهما كقيود متينة كبَّلت حركتهما، وأثارت عيون المخلوقات التي بدت متقدة كجمرة شديدة الاحمرار الرعب في قلوبهم، ووجدوا أنفسهما يقتربان في سرعة من تلك المخلوقات البشعة، حتى صارا داخل فكيها المفتوحتين عن آخرهما، والتي كانت تستعد للانقضاض عليهما في عنف وقوة، أدركا معها أنهما صارا قاب قوسين أو أدنى من الموت، ويا لها من طريقة بشعة للموت، الموت بين أنياب حادة، وأغمضت أميرة عينيها انتظارا للموت، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، بينما تصاعدت في المكان رائحةُ شواءٍ كريهة دفعتهم للغثيان، ورأى سلام الذي كان ينوي المقاومة حتى آخر نفس المشهد كاملا، لقد ظهرت خمسة أجسام بيضاوية الشكل انطلقت منها خيوطٌ من اللهب في دقةٍ نحو الكائنات البشعة التي كانت تهمُّ منذُ لحظاتٍ بالتهامهما، لكن حرمها اللهب الذي سرى في أجسادها من تناول وليمتها، كان الأمر يبدو مذهلا لهما وهما يشاهدان انحسار المياه التي كانت تغطي معظم أجسادهما، وقبل أن تبدر حركة واحدة من سلام الذي بدا على وجهه الذهول الكامل، انطلقت خيوط من الضوء المبهر الذي أغشى عيونهما، قبل أن تحيط بجسديهما إحاطة كاملة، وشعر الاثنان بجسديهما يتفككان، وبأنهما يفقدان الوعي .

*****

كان سلام يشعر بقشعريرة باردة تسري بأوصاله، وبجسده يرتجف في عنف، ووجد نفسه يعود لذلك العالم العجيب مرة أخرى، ذلك العالم الذي يرى ويسمع دون أن يكون له الحق في التدخل في الأحداث، وأمامه بدت الحركة تجري على قدم وساق في منطقة بوابة العبور بين الأرضين،

الأرض الثالثة وأرض التوران، كان فريق من العلماء ينظر إلى شاشات الرصد في دهشة، وهم يحدقون في عدي الذي استبدَّ به التعب، وهو يجلس على الأرض تحت بوابة العبور مباشرة،

ودلف الملك زيجا إلى المكان، ومعه الوزير توران، وكبير العلماء، وعدد كبير من الحرس الذين كانوا يحيطون به من كلِّ جانب، كان الملك يحدق في عدي الذي كان يبدو على الشاشات في دهشة، قبل أن يقول: مقاتل آلي صممه صانعوه على هيئة وزيري توران يقوم بمهاجمتنا منذ دقائق، قبل أن نتمكن من إلقاء القبض عليه ليقوم بتفجير نفسه ذاتيا كما صممه مخترعوه؛ حتى لا نتمكن من كشف سره، والآن هذا الغريب الذي يجلس تحت بوابتنا مباشرة غيرَ مبالٍ، أيُّ عبث هذا الذي يحدث؟

كان الجميع يحدقون في الشاشات، دون أن يجرؤ أحدهم على الرد على الملك، سرح الملك بخياله وهو يتذكر أوامره لرجاله بإجراء فحص أمنى شامل لكلِّ جزء من أرض التوران دون أي استثناءات، وبدأت عملية الفحص التي لم تستغرق سوى دقائق معدودةٍ، وظهرت بعض الأجساد التي كانت تحيط بها هالة ضوئية باهتة، أدركوا معها طبيعتها فتمَّ التعامل معها على الفور، وأحاطت بها كرات شفافة من الطاقة، وقبل أن يطلقوا أشعتهم القاتلة نحوها انفجرت هذه الأجساد في عنف، لكن الكرات الشفافة استطاعت احتواء الانفجارات ..

أعادته بعض الهمهمات التي سرت في المكان إلى الواقع، فالتفت نحو الوزير توران قائلا: تُرى مَن خلف كل هذا يا توران؟

قال توران: أرى يا مولاي أن نبادر بإلقاء القبض على هذا الغريب؛ فمؤكدٌ أنه يعرف جواباً لأسئلتنا .

وافقه الملك بإيماءة من رأسه، لكنه قال وهو ينظر إلى كبير العلماء: ولكني أخشى من فتح البوابة يا توران .

بادر أحد العلماء قائلا: أعتقد أن الخطر قد زال يا مولاي .

قال الملك: وما الذي يدفعك لقول ذلك؟

أجاب قائلا: لقد رصدت أجهزتنا انحصار المياه عن وطننا السابق، كما بدأ ضوء شمسي كوكبنا في السطوع مرة أخرى.

ساد الصمت على المكان قبل أن يقطعه الملك قائلا: هل أنتَ متأكد مما تقول؟

حسم كبير العلماء الأمر بقوله: إن إحضار هذا الغريب إلى هنا لن يستغرق سوى ثوانٍ معدودة يا مولاي .

قال الملك: حسنا فلتبدأ عملية إحضار الغريب .

ابتلع الملك ريقه وهو يستطرد: أريد استغلال فترة فتح البوابة بإرسال بعض مجساتنا الآلية لعمل مسح شامل لعالمنا السابق .

بدأ أحد رجال المراقبة ضغط مجموعة متتالية من الأزرار فور إعطائه أمرا مباشرا من الملك زيجا، وانطلقت خيوط الضوء لتحيط بعدي الذي بدا أمامهم عاجزا عن المقاومة، وقد بدأ جسده في الارتفاع نحو بوابة أرض التوران، في نفس الوقت الذي انطلقت فيه مجموعة من الكرات الشفافة نحو الأرض الثالثة، وهي تنطلق بسرعةٍ تفوق سرعة الضوء، وهي ترصد وتسجل كلَّ شيء في هذه الأرض، فقد استطاعوا تطوير أجهزتهم الاستكشافية بعد الكارثة التي أحاطت بهم، وعادت الكرات الشفافة إليهم مرة أخرى، بعد أن نجحت في أداء مهمتها، بينما استقر جسد عدي الفاقد الوعي فوق إحدى المناضد المتحركة، وقد أحاطت بجسده خيوط الضوء، والتي كانت تقيِّد حركته تحسبا لاسترداد الوعي في أيِّ لحظة، وأحاطت بجسده كرة شفافة كتلك التي أحاطت بشبيه توران الآلي، لقد كانوا يتخذون كافة الاستعدادات الأمنية ..

- الآن .

كلمة واحده نطقها الملك، انطلق بعدها شعاع رفيع من الضوء اخترق جبهة عدي معلناً أغرب عملية استجواب في التاريخ .

***

٥ ـ استجواب

رغم أن عدي كان فاقد الوعي إلا أن العرق كان يتصبب على وجهه في غزارة، كما كان يشعر بخيط من النار يخترق جبهته ويحيط بتلافيف مخه الذي كان يشعر أنه يحترق، كان يتعرَّض لعملية انتزاع المعلومات منه، لقد عرف ذلك، والتف الملك زيجا والوزير توران ومجموعة العلماء حول شاشة عملاقة مجسمة كانت تحوِّل كلَّ المعلومات والمشاهد إلى فيلم مُجسَّم الصورة، وسالت المعلومات أمامهم في غزارة، وبدأت كل التفاصيل تظهر أمامهم، فصاروا يعرفون كلَّ شيء عن هذا الغريب، نشأته .. عالمه.. بيئته كل تفاصيل حياته منذ طفولته، وانقبض قلب الملك زيجا من الخوف، وهو يري المسخ الثعباني بشع الهيئة، وقد تمكنت شاشتهم من تكوين صورة حقيقية له، فزفر في حرارة وهو يلتفت إلى الوزير توران قائلا: إذن هذا هو خصمنا الذي حرمنا من وطننا، يا له من كائنٍ مُقزز بشع الخلقة .

قال الوزير توران: لقد تمكَّن ذلك الغريب من القضاء عليه بسلاح بدائي، في الوقت الذي عجزت فيه أحدث أجهزتنا عن سبر أغواره، والوصول إلى حقيقة الأمر و..

قطع حديث الوزير أحد العلماء الذي اقتحم المكان، وهو يقول: إنه أمرٌ عجيب يا مولاي؟ أمر لا يصدقه عقل.

التفت الملك زيجا في حدة، وهو يقول: تحدَّثْ على الفور يا رجل؛ لا داعي لإضاعة الوقت.

أجابه الرجل قائلا على الفور: لقد قمنا بتفريغ أجهزتنا الاستكشافية الذكية، وقد أكدت الصور التي قامت بتخزينها أن عالمنا عاد إلى طبيعته، كما جفت المياه التي كانت تغطي المنطقة الشمالية تماما.

هتف الملك الذي عقد حاجبيه في دهشة: عظيم .. أمرٌ عظيم يا رجل .

قال الأول وهو ينظر إلى الملك زيجا في تردد: لكن يا مولاي، التقطت أجهزتنا صورا لكهوف جبلية سحيقة الأعماق، لم تستطع سبر أغوارها كما لم تستطع الدخول إليها، لقد كانت هناك ذبذبات تنطلق من مصدر مجهول جعل الصور مشوشة غامضة .

عقد الوزير توران حاجبيه في شدة، وهو يستمع إليه قبل أن يقول: إذن ما زال الخطر قائما، ولا أستبعد أن يكون هناك المزيد من هذه الكائنات البشعة .

قالها وعقله يستعيد صورة المسخ الثعباني بشع الخلقة، فوجد جسده يرتجف رغماً عنه، وساد الصمت التام المكان، وعيون الجميع تتجه نحو الملك زيجا الذي أسند ذقنه على كفيه الذين ضمهما أمامه، وهو يفكر في عمق، وطال الصمت الذي قطعه الملك زيجا، وهو يلتفت نحو كبير العلماء قائلا: كم من الوقت يلزمكم لتركيب بوابة عبور عند المنطقة الشمالية ؟

قال كبير العلماء في سرعةٍ، ودون تردد: ساعتان فقط يا مولاي .

قال الملك الذي تهللت أساريره: وكم من الوقت يلزم لتصنيع بوابة أخرى يتم تركيبُها في أرض التوران في نفس المنطقة الموازية ؟

تبادل كبير العلماء النظرات مع مجموعة العلماء قبل أن يقول: في هذه الحالة نحتاج إلى يوم كامل يا مولاي .

قال الملك: حسنا.. فليبدأ العمل على الفور، لكنكم لن تصنعوا بوابة واحدة فقط بل اثنتين .

نظر إليه الجميع في دهشة، بينما كان الوزير توران ينظر إلى سيده في إعجاب، فقد أدرك ما يرمي إليه قبل أن يقول، وهو يشير إلى عدي: والغريب يا مولاي ماذا سنفعل به؟

قال الملك: فليبقَ في ثباته الصناعي؛ فسنحتاج إليه لاحقا .

****

كان العمل في أرض التوران يجري بسرعة ودقة، فقد كانوا يشبهون في نظامهم ودقتهم خلايا النحل، وانتهى العلماء من صنع بوابتي العبور في الوقت المحدد، وتمَّ تركيب البوابات في أماكنها التي تمَّ تحديدها في دقة، كما تم تحديد بوابة العبور بين أرض التوران وأرضنا بواسطة كرات الاستكشاف الشفافة التي انطلقت تجوب المنطقة، ولم ترصد سوى رمال الصحراء، والشمس الساطعة، والجبال الشامخة، وبئر مهجور خلا من المياه، وأشجار يبست فروعُها لجفاف المياه، وبدأ المقاتلون الآليون عملهم، وبدأ حفر الأنفاق والسراديب داخل الجبل الأوسط، كما تم تزويده بأبواب تمَّ صنعها من مادة متطورة ابتكرها علماؤهم، كانت تشبه صخور الجبال في لونها، وكانت هذه البواب تُفتح بنقش صمموه في دقة، كما تمَّ الحفرُ داخل البئر لينتهي ببوابة عبور صغيرة تُمكِّن مَن يصل إليها من العبور إلى أرض التوران، وتدفقت المياه من البئر الذي تمَّ توصيله بأحد أنهارهم عبر جداول وقنوات تمَّ حفرُها لتنساب في تلك المنطقة القفر،

كل ذلك لم يستغرق سوى ساعات معدودة، أصبحت بعدها هذه المنطقة واحةً غنَّاء بعد أن أينعت الأشجار التي تم ريُّها بمياه تم معالجتها بمواد خاصة، ونسى أهل التوران أمرَ الواحة تماماً بعد أن تركوا بها أجهزتهم الدفاعية التي تمَّ تغذيتها بكلِّ المعلومات اللازمة، وانطلقت المقاتلات الآلية عبر بوابة المرور إلى عالمهم القديم، وقد حملت مقاتلة منهم على متنها كرتين من الكرات الضخمة الشفافة حوت إحداهما القنبلة الضخمة شديدة الانفجار، والتي كانوا ينون تفجيرها من قبل، لكن لقاءهم بالغريب جعلهم يعيدون حساباتهم من جديد، وقذف الآليون الكرتين داخل بوابة عبور المنطقة الشمالية في اتجاه الكهوف، وأغلقت بوابة العبور وعاد الآليون إلى أرض التوران في دقائقَ معدودةٍ، وانفجرت القنبلة .

*****

كانت جميلة ترى نفسها داخل تلك الواحة الملعونة التي اختفى فيها والدها ووالدتها من قبل، وأحاطت بها وصيفاتها وهن يلهون ويمرحن، كما كان هناك عدد كبير من الفرسان انتشروا في أرجاء الواحة، وهم يأخذون وضع الاستعداد، لكن أصابها الهلع، وارتجف قلبها الذي زادت دقاته مع رؤيتها للعمالقة الذين أطلق أحدهم إشارة البدء لتبدأ المعركة، وقبل أن يتحرك أيُّ أحدٍ منهم قيد أنملة انطلقت السهام من كلِّ صوب، واخترقت الأعناق والصدور، فقد أمطر الفرسان المكلفين بحراستها العمالقة بوابل من السهام، وتساقط العمالقة كالذباب، وانتهت المعركة في لمح البصر، انتهت قبل أن تبدأ، وتنهدت جميلة في ارتياح، وهي ترى النصر وقد صار حليفها، فقالت تداعب إحدى وصيفاتها: لقد ظننت للحظة أنني سأستريح من صحبتك .

ضحكت الوصيفة وقد ملأت السعادة وجهها: معنا أسود يا سيدتي .

كانت تشير نحو الجنود الذين تجمعوا من أماكنهم تحت لواء قائدهم، الذي تقدم بجواده حتى وقف على بعد خطوات من جميلة، وهو يقول: هل تشاركني سيدتي الرأي في أنه يتوجب علينا مغادرة المكان بسرعة والعودة لديارنا؟

كانت نفس جميلة قد ارتاحت؛ فقد انتصر فرسانها في سهولة ويسر، حتى أنها كانت تشعر بالنشوة والسعادة، وقد فارقها القلق والتوتر، وهو ما دفعها للقول: ولمَ العجلة أيُّها الفارس ؟ إن يومنا لم يبدأ بعد .

قال قائد الفرسان، وقد كسا التوتر وجهه: هل تثق سيدتي في ؟

أومأت برأسها، وهي تقول: تحدَّثْ على الفور يا رجل .

قال: ما زلتُ أرى أن الخطر ما زال يحدق بنا، ألم ترَ مولاتي كيف ظهر هؤلاء الفرسان فجأة؟

لقد كنا نراقب كلَّ مداخل الواحة ومخارجها، ولم تمرْ أمامنا بعوضة، هناك شيء غامض يا سيدتي .

صمت لحظة شعر خلالها بارتجافه قوية تهز جسده، وهو يقول: هذا المكان ملعون .

قبل أن تبادر جميلة بالجواب، انطلقت الصرخات، وتناثرت الأشلاء، وطار رأس قائد فرسانها بعيداً، وقد انطلقت من موضعه نافورة من الدماء لطخت ثيابها، قبل أن يسقط الجسد أرضا،

كان كابوسا مزعجا تراه أمامها، فقد انتفضت الرمال فجأةً، وانشقت الأرض ليخرج من بطنها عدد كبير من العمالقة وهم يمتطون جيادهم التي انطلقت في قوة، ووجد جنودها الذين تجمعوا خلف قائدهم تاركين أماكنهم محاصرين من كل جانب، وانتهت المعركة، وسقط الفرسان صرعى، وثارت الرياح، وانطلقت العواصف والأعاصير العاتية، ووجدت جميلة نفسها وحيدة في مواجهة عدد كبير من العمالقة، ومن بعيد لاح لها كهفٌ كبير بالجبل المقابل، لكن كيف ستتجاوز هذا العدد الرهيب من الفرسان؟ مَن الذي سيتركها تفعل ذلك؟ كان يبدو لها الأمر مستحيلا؛ فقد باتت محاصرة من العمالقة الذين بدوا يحيطون بها من كلِّ جانب، ودون تردد منها قفزت جميلة نحو البئر الذي كانت تقف بجواره، لم يكن أمامها بديل سوى ذلك، وخلفها قفز اثنان من العمالقة، وهدأت الريا ح، واختفى باقي العمالقة، وساد المكان الهدوء، وتناثرت جثث الفرسان في كل مكان، وقد سالت أنهار الدم على أرض الواحة في منظر مريع ..

- البئر.. البئر .

هتفت جميلة بكلمتها السابقة، وهي تحدق في وجه حسان كبير الفرسان؛ فقد استردت وعيها على الفور، ظنها الحكيم ربيع تهذي من هول ما رأت في رحلتها الأخيرة، وقد أدهشه استعادتها المفاجئة لوعيها، لكن جميلة التي وجدت نفسها بمخدعها الخاص تنام فوق سريرها، أدركت أن ما رأته مجرد حلم، بدأت تستعيد صفاء ذهنها، وهي تجول ببصرها في أرجاء الغرفة، وتتفحص وجوه الفرسان الذين كانوا يحيطون بالمكان، والحكيم ربيع، وكبير الفرسان حسان، كانت قد تذكرت كل ما مرَّ بها من أحداث قبل أن تقول: لا بدَّ من الذهاب إلى الواحة؛ فالبئر الموجود بها هو طريقنا للعبور إلى ذلك العالم العجيب، وهناك سيمكننا العثور على كلِّ مَن فقدنا .

٦ ـ الانفجار

كان انفجارا عنيفا ذلك الذي خلَّفته القنبلة الكبيرة التي أطلقها علماء أرض التوران، انفجار أطلق موجة تضاغطية هائلة عجزت عن تفتيت صخرة صغيرة من صخور الكهوف التي امتصت جزءاً منها، فانطلقت نحو الجانب الأضعف بوابة العبور التي انهارت في عنف لتندفع موجة التضاغط وكتل اللهب مارة عبر الأرض الثالثة، كما انطلقت موجة تضاغطية أخرى موازية أطاحت ببوابة العبور الموازية، وانطلق طوفان المياه مرة أخرى ليغطي الأرض الثالثة ليسود الظلام التام، وهوت بوابة العبور الرئيسية للمرور بين العالمين في عنف، وداخل المخبأ الاحتياطي وقف الجميع يحدقون في الشاشات في ذهول، ووقف الملك زيجا وقد شلَّت الدهشة حركته، لقد كانت حسابات علمائه غير صحيحة، لقد أخطأ العلماء، أدرك أن الوزير توران كان على حق عندما رفض فكرة تفجير القنبلة، كان يشعر بالندم لأنه لم يتبع رأي وزيره، ولكن ماذا يفيد الندم؟ لقد فات الأوان هكذا كان يقول لنفسه، كان يدور في مكانه كالمجنون، ورغم أن أجهزة تبخير المياه قد نجحت في عملها، واستطاعت الحفاظ على منسوب المياه مانعة إياه من عبور أرضهم، كما نجحت بوابات العبور التي تهاوت في كبح موجة التضاغط الهائلة التي أطاحت بها إلا أن ذلك لم يخفف من حدة القلق داخل الملك زيجا؛ فقد كانت الخسائر فادحة؛

فقد أصاب أجهزتهم خلل كبير عجزت معه عن رصد أماكن العمالقة سكان أرض التوران الأصليين الذين فقدوا سيطرتهم عليهم بعد وقوع الانفجار، فصار العمالقة يقتلون كل مَن تقع عليه أيديهم من رجال، ثم يعاودون الاختباء داخل الكهوف الجبلية مرة أخرى، وجرى العمل في سرعة رهيبة، وتمكَّن العلماء من تركيب بوابة عبور مزدوجة أكثر متانة من سابقتها، وأخرى من الناحية الشمالية، وتفرَّغ الجميع لإلقاء القبض على العمالقة، والتخلص منهم في حالة فشلهم في السيطرة على عقولهم، وبعد وقت طويل نسبيا بالنسبة لهم تمكَّن العلماء من معرفة السر، سر الخلل الذي أصاب أجهزتهم، لقد كانت ذبذبات فائقة عجزوا عن صدِّها كانت تنطلق من المنطقة الشمالية بعالمهم القديم، وهو ما جعلهم يوقنون أن الخطر لم يزل قائماً فحسب، بل كان يتضاعف ويتزايد مع مرور الوقت .

*****

استعاد سلام وعيه، ووجد نفسه داخل المبنى الذي يشبه الجمجمة، ووجد زوجته بجواره، وقد بدا الذهول على وجهها، وهي تجذبه من ساعده قائلة: كيف عدنا إلى هنا؟ تذكرت الخطر المحيط بهما فقالت: لا بدَّ من مغادرة هذا المكان يا سلام .

نظر إليها سلام قبل أن يقول: لقد أعادونا إلى هنا .

هتفت وهي تحاول جذبه للمضي خارج المبنى: مَن يا سلام ؟

قال سلام الذي وقف في ثباتٍ دون أن يتحرَّك قيد أُنملة: سكان أرض التوران أو على الأدق محتلوها سكان هذه الأرض الأصليين .

تمتمت في خفوت، وقد أدركت أن خيوط الضوء التي أحاطت بهما كانت وسيلتهم لإعادتهم إلى نفس المبني: لماذا؟ لماذا عدنا ثانية إلى هذا المبنى الملعون؟

قال سلام الذي أدرك عقله الحقيقة كاملة: لقد قاموا بتلقيني كل ما مرَّ بهم من أحداث بوسيلة لا أدري طبيعتها .

وشرع يقص عليها كل ما رأى، فقالت في ذهول: هل تعني؟

بترت تساؤلها، وهي تنظر إليه والخوف يتملكها، أومأ سلام برأسه دون أن ينتظر إكمالها السؤال قائلا: نعم يا عزيزتي، أعنى ما فهمتيه بالضبط، فكلُّ ما مرَّ بنا كان معداً بكل دقة؛ فقد كانت الواحة التي شهدت اختفاءكِ، واختفاء ابنتنا بعدكِ، وجدي عدي الذي ذهب إليها بمحض الصدفة هي بوابة العبور إلى هذا العالم، كما انتقلتِ أنتِ إليه بمحض الصدفة بعد الخلل الذي أصاب أجهزتهم، ورصدت أجهزتهم بوسيلة ما قدوم جميلة ابنتنا في يوم كانت الذبذبات التي كانت تعيق عمل أجهزتهم بالوجه الصحيح، وقد تأكد لهم بنفس الوسيلة أنها تحمل نفس الجينات الوراثية للغريب الذي أنقذهم، فظنوا أنها تستطيع القضاء على المسخ الثعباني الثاني والذي كان يختبئ داخل أحد الكهوف، وقد عملت على حراسته تلك الوحوش البشعة التي تمكنت من قتل إحداها فور قدومي إلى هنا.

صمت لحظة التقط خلالها أنفاسه، قبل أن تقول في ذهول: ولكن لماذا أخبروك بذلك؟

قهقه بصوت مرتفع، وهو يقول: ألم تدركي جواب السؤال حتى الآن يا عزيزتي، كل شيء كان ينبئ بهدفهم منذ البداية، ألم تسألي نفسك لماذا لقنوكِ من قبل كلَّ تاريخهم، والذي لم يكن كله صحيحا، لقد مزجوا الحقائق بالكذب حتى تبدوا قصتهم أكثرَ منطقية .

كانت تنظر إليه في ذهول، وهو يواصل حديثه قائلا: لقد كانوا يعدون العدة لاستقبالي، بل أنهم كانوا يدفعونني للذهاب إلى حيث يريدون، فطوال الوقت لم يكن لي حق الاختيار، طريق واحد فرضوا عليَّ أن أسلكه حتى وصولي إلى هنا كان مدبراً ..

قاطعته وهي تحدق في وجهه متسائلة: كيف؟ لقد طلبت أنا الدخول إلى المبنى الذي اختبأنا فيه، كما قمت بالبحث عن النفق الموجود به حتى نلوذ بالفرار.

ابتسم في سخرية شابها المرارة، وهو يقول : لقد كنتِ واقعةً تحت السيطرة العقلية لهم، لقد كانوا يتحكمون في تحركاتي من خلالك.

بدا حديثه لها منطقيا، فأكمل قائلا: لقد كنتُ أنا المنشود؛ فقد اختفى كل الفرسان فجأة بعد أن أيقنوا أنهم ليسوا المنشودين، وبقيت أنا لمقاتلة خصمهم، ذلك المسخ الثعباني.

قالت: هناك شيء غامضٌ في الأمر.

نظر إليها، وعيناه تفحصان المكان في دقة، قبل أن يقول: أيُّ غموضٍ يا حبيبتي؟ كل شيء يبدو واضحا جلياً.

قالت: لماذا لم يتركوا باقي الفرسان معك؟ فمؤكد أن فرصتك في القضاء على خصمهم كانت ستصبح أقوى.

تسللت ابتسامة إلى شفتيه، وهو يقول: لقد تملكهم الخوف لدى رؤيتهم لقدرات جدي القتالية، وكيف أنه استطاع التغلب على خصمهم الشيطاني بسلاحه البدائي في حين عجزت أسلحتهم المتطورة عن فعل ذلك .

صمت لحظة قال بعدها: لقد رأوا قتالنا في عالمهم، كما أدهشهم سرعة استيعابنا لكل ما حدث به .

أردف وهو يتنهَّد في حزن: إن ما يخشونه أن أتمكن من هزيمتهم في حال تمكُّني من القضاء على خصمهم، في حال بقاء الفرسان معي، أما وأنا وحدي فلا أشكِّل لهم خطراً، كما يمكنهم التخلص مني .

حدقت فيه في ذهول لم يفارقها، وهي تقول: وأين ذهب جدك؟ لماذا لم يجعلوه هو مَن يقوم بهذه المهمة؟

شعر بغصة من المرارة في حلقه، وهو يقول: لقد كانت الكرّة الثانية التي حملوها مع القنبلة تحوي داخلها جدي الذي تمزق مع انفجار القنبلة؛ فقد أرادوا التخلص منه بعد أن ظنوا أنهم نجحوا في مهمتهم .

نظرت وقد أطلَّ الخوف من عينيها، بعد أن أدركت مصيرها وزوجها، لقد أدركت أنهما أمام خيار واحد لا ثاني له، الموت على يد ذلك المسخ البشع، أو الموت على يد سكان هذا العالم الملعون . فقالت: لا بدَّ أن نجد وسيلة للخروج من هنا يا سلام .

قال الأخير: اهدئي يا عزيزتي، لم يعد الأمر بيدنا.

انتزع بعدها قوسا وكنانة مُلئت بالسهام مناولا إياها قبل أن يقول، وهو يشير إلى ركن قصي في المبنى: ستذهبين إلى هناك .

كانت تمسك بالقوس وكنانة السهام في قوة، وقبل أن تتحرك من مكانها بعد أن أدركت الدور الذي حدده لها زوجها، فستقوم هي بإطلاق السهام فور قدوم الوحش، واشتباكه مع زوجها سلام، اهتزت الأرض تحت أقدامهما، وهبَّت نيران المشاعل وهي تتراقص في المكان كالأشباح ملقية بظلال مخيفة قذفت الرعب في قلبيهما، ثم قامت عاصفةٌ من الرياح الساخنة لفحت وجهيهما، وقبل أن يحرك سلام أو زوجته ساكنا شعر بجسده يطير لأعلى، قبل أن يرتطم بالجدار المقابل في نهاية المبنى ثم يسقط أرضا، بينما أميرة شعرت بجسدها يطير بخفةٍ مثل ريشة ثم توقف فجأة على مقربة من السقف، بينما عقلها توهَّج كجمرةٍ من اللهب شعرت معها بمخها يحترق، ونظرة واحدة منها للوحش جعلتها تمتعضُ، وقد سرى الخوف في دمها، لقد كان المسخ أكثر بشاعة وقسوة من سابقه، كما ارتجف قلبها في رعب عندما رأت المسخ يحدج سلام بنظرة حملت كراهيةً ومقت العالم أجمع، ثم سالت الدماء من أنف سلام الذي أدرك أنه هالك لا محالة، فقد أيقن أن ذلك المسخ قد ورث ذاكرة سابقه بطريقة ما، كما أيقن أنه أصبح أكثر وحشية وضراوة منه .

*****

٧ ـ اللانهاية

جهَّز حسان جيشاً جراراً من الفرسان انصياعاً لأوامر جميلة ابنة سيد القبيلة، وانطلقت الجياد تنهب الأرض حتى بدا أنها تسابق الرياح مثيرةً عاصفةً من الغبار الذي بدا أنه بلغ عنان السماء، كما كانت أشعة الشمس عمودية في ذلك اليوم القائظ وهي تلهب رؤوسهم وظهورهم،

لكنهم لم يكونوا يبالون بذلك؛ فقد كانت تقلبات الطبيعة جزءاً من حياتهم التي ألفوها، حتى الصعاب والمخاطر لم تكن تفت في عضدهم شيئاً، ولاحت لهم من بعيد الواحة التي واصلوا تقدمهم نحوها في ثبات دون أن يهتز قلب أحدِهم، كان الأمر بالنسبة للفرسان الشبان يعني حياة أو موت سيدهم سلام، وما هي إلا لحظات قليلة حتى وجدوا أنفسهم على مشارف الواحة التي كانت تشبه الجنة، وهبَّت نسماتُ الهواء تداعب وجوههم فشعروا بالنشاط والحماس يدبُّ في عروقهم، وقد اختفت أشعة الشمس، كانوا يشعرون بالدهشة؛ ففي كل مرة أتوا فيها قادمين للواحة

كان يراودهم ذلك الشعور الغريب، بأن هذه الواحة لا تنتمي لعالمهم، ولكنها تنتمي لعالم آخر.

كان كل شيء فيها يوحي بذلك، جوها ونسمات الهواء العليل التي كانت تهبُّ بأرضها، غدير المياه العذبة الصافية الرقراقة، والأشجار التي تحفُّ الواحة والزهور التي تعطر المكان، وكلمات جميلة التي أكدت شعورهم هذا، والتي كانت تتقدمهم بجوادها الشاهق البياض، وقد ارتدت ملابس الفرسان، وتلك البئر العميقة والتي كانوا لا يعرفون لها قرارا، والتي كانت وجهتهم وهدفهم المنشود، كانت جميلة تقف بالقرب من الخيمة التي انتهى الرجال من أقامتها على التوِّ بالقرب من البئر بناءً على طلبها، وتفرَّق عشرون من الفرسان الأشداء ليتخذ كلٌّ واحد منهم مكانه في دقة، وقد وقف كل أربعةٍ أمام جبل من الجبال الثلاثة التي تحيط بالمكان، وقد أولى كل اثنين منهم ظهرهم للاثنين الآخرين، فأصبح اثنان في الاتجاه المطل على الخيمة، والاثنان الآخران في اتجاه الجبل، بينما وقف ثمانية من الفرسان الأشداء في المدخل الوحيد للواحة، وقد اتخذ كلٌّ واحدٍ منهم وضع الاستعداد، فوقفوا شاهري سيوفهم، كانوا يطبقون تعليمات كبير الفرسان حسان،

حتى أن الناظر إليهم كان يوقن أنهم يستعدون لخوض معركة حامية الوطيس وشيكة الوقوع.

بينما مضت جميلة نحو البئر، وخلفها كبير الفرسان حسان، ومئات الفرسان، كانت تقترب من البئر، وقد بدا الشرود على وجهها، وقد شغل عقلها واستحوذ على كل تفكيرها ذلك الحلم الغريب، لقد كانت تشعر أنه حقيقة عايشتها، وليس مجرد حلم، كانت مستغرقة في التفكير،

وقفزت فجأة داخل البئر، ودون تردد تبعها حسان وباقي الفرسان، وغاصت الأجساد في البئر الذي بدا ساكناً، وداخلهم كانوا لا يصدقون أن يجدوا ما قالت عليه جميلة، لكن تلك الكُرات الشفافة التي أحاطت بأجسادهم جعلتهم يوقنون أن الأمر حقيقة وليس أوهاماً أو أضغاث أحلام رأتها ابنة سيدهم، وما هي إلا لحظات معدودة حتى وجدوا أجسادهم تطير لأعلى قبل أن تعاود الهبوط خارج البئر، ووجد الجميع أنفسهم وقد سقطت أجسادهم وسط حديقة مُحاطة بالأشجار العالية، وقد خفَّفت تلك الكُرات التي كانت تحيط بهم من أثر السقوط قبل أن تتلاشى، نهض الجميع في سرعة، وقد اصطفوا في نظام عجيب، وكل واحد منهم يتحسس حزامه ليتأكد من وجود سيفه، وتقدمهم حسان الذي كان ينظر حوله محاولاً استكشاف المكان، قبل أن يقول لجميلة: ما الخطوة التالية يا بنيتي ؟

مدَّت جميلة نظرها نحو المباني العملاقة التي كانت تبدو أمام ناظريهم، وهي تشير إلى مبنى أبيض اللون شاهق الارتفاع قائلة: سنذهب إلى ذلك المبنى؛ فهناك يكمن الحل .

وبدأ الفرسان سيرهم نحو المبنى، وشردت جميلة بعقلها بعيداً، عقلها الذي ازدحم بعشرات الأسئلة، لقد جاءت إلى هذا المكان من قبل، لكن متي؟ كانت لا تتذكر ما مرَّ بها من أحداث على أرض هذا العالم، كيف لحُلمٍ أن يقودها إلى هذا العالم؟

كان هناك شعور قوي يراودها بأنَّه ليس مجرد حلم، لكنها رسالة أراد شخص ما أن تصلها،

عادت إلى واقعها وأفاقت من شرودها إثر توقف خطوات الفرسان، ووجدت نفسها أمام المبنى الذي كان موصدَ الأبواب، وقد حار حسان وفرسانه في فتح أبوابه، وتقدمت جميلة نحو الباب، وضغطت نقشا به بيدها التي ارتدت للخلف قبل أن يُفتح الباب على مصراعيه، وخطت داخل المبنى، وتبعها حسان وفرسانه الذين كانوا يحدقون فيها في ذهول؛ فقد تمكنت من فتح الباب دون عناءٍ، وبدت كشخص يؤدي عملا اعتاده، وتبعها الجميع وقد توقفت أمام الغرفة الوسطى الموجودة بالطابق الأرضي، قبل أن تقول وهي تنظر إلى حسان: سيبقي نصف الفرسان هنا تحت قيادتك، وستكون مهمتكم فحص المكان جيداً، ودخول هذه الغرفة، والبحث فيها جيدا، وبحث الغرفتين المجاورتين، بينما سأصعد أنا وباقي الفرسان إلى الطابق الثاني و..

- قُضِيَ الأمرُ أيتها الفتاة .

انطلق صوتٌ جهوري بهذه العبارة، واتجهت أبصار الجميع نحو مصدره، وأمامهم كان مئات من العمالقة وجنود الملك زيجا يواصلون تقدمهم نحوهم يتقدمهم الوزير توران صاحب الصوت،

كان المشهد مخيفا، شعر معه حسان وفرسانه بأن النهاية قد أوشكت، وداخلها أيقنت جميلة أن فرصة لقائها بوالدها تتضاءل .

****

كان جسد سلام يصرخ من الألم، كان ألماً لا يُطاق، وذلك المسخ الثعباني يحدجه بنظرةٍ حملت كل المقت والكره، شعر سلام بخناجرَ حادةٍ تُمزق تلافيف مخه من الداخل، بينما كانت أميرة تنظر نحوه وقد ملأ الرعب قلبها، وذلك المسخ البشع يسيطر عليها، وقد صارت معلقة في الهواء، وأصبحت تلاصق السقف، لقد زادت رغبة الانتقام من بشاعة الوحش، كان سلام يحاول النهوض لكنه شعر بالعجز؛ هناك قوة خفية تُكبِّل يديه وساقيه، وذلك الوحش ينظر نحوه في شماتةٍ، وهو يتقدم في بطء، كان مشهدا غريبا مرعبا، أميرة معلقة في الهواء، وسلام يعجز عن النهوض، ومسخ ثعباني بشع الخلقة وقد التفَّ حول الجميع كائنات بشعة برزت أنيابُها الحادة،

ووجد سلام جسده يطير لأعلى مرة أخرى، قبل أن يرتطم بالجدار في عنفٍ، وقبل أن يتهاوى ساقطا فوق أرضية المكان حالت قوةٌ خفيةٌ دون ذلك، ووجد تلك القوة تجبره على الوقوف قبل أن يتلقى لكمة قوية شعر معها أن بطنه قد التصقت بعموده الفقري، وتوالت اللكمات وصرخ سلام من الألم، وقد سالت الدماء من فمه في غزارة، وضحكات المسخ الشامتة تخترق أذنه دون صوت، لقد كان يشعر بها، كان وجهه يتصبب عرقا وقد أجبرته تلك القوة على انتزاع سيفه من غمده، وراح سلام يقاوم في عنف تلك القوة التي راحت تجبره على توجيه السيف نحو عنقه.

لقد أدرك أن ذلك المسخ يستخدم قواه العقلية الفائقة في السيطرة عليه، لقد كان يريده أن يقتل نفسه، كانت نظرات المسخ نحوه تشعره بأن مئات الخناجر تطعن جسده، وكلما ازداد اتقاد عيني المسخ شعر سلام بقوته تضعف وبالسيف يقترب من عنقه، لقد أصبح الموت وشيكا؛ فقد أحكم المسخ الثعباني سيطرته العقلية عليه وعلى زوجته، كان كل ما يتمناه سلام أن يتحرر عقله لحظة واحدة من ذلك المسخ، لكنه فقد كل أمل في ذلك، ويده تواصل دفع نصل سيفه الحاد نحو عنقه، كان يرى نظرات الشماتة تطلُّ من عيني خصمه الذي شعر أنه يُخرج له لسانه شامتاً، توقفت يده الممسكة بالسيف فجأة، وشعر بتحرره من سيطرة المسخ العقلية عليه، فقد

اخترق السهم الذي نجحت أميرة في إطلاقه في اختراق عنق المسخ نافذا إلى الجانب الآخر، بعد أن فقد المسخ سيطرته عليها؛ فقد كان كل تركيزه على سلام، ورغم سقوط أميرة أرضا في عنف شعرت معه أن عظام جسدها قد تهشَّمت إلا أن مصير زوجها وذلك الجحيم الذي يعانيه جعلها تنجح في النهوض في سرعة، وشدت السهم على وتر القوس الذي منحه لها سلام، وبأيدٍ مرتعشة أطلقته، وانطلق السهم مخترقا عنقه على النحو السابق، وزمجر المسخ الثعباني الذي التفت نحوها في حدةٍ، وهو يرمقها بنظرة غاضبة، وشعرت بجسدها يرتفع لأعلى قبل أن يرتطم بالأرض في عنف، وقبل أن يعاود المسخ الكرَّة مرة أخرى بادر سلام الذي نسيه المسخ في غمرة غضبه من أميرة برفع سيفه عاليا قبل أن يهوي به نحو عنق المسخ الثعباني الذي طار رأسه لأعلى مصطدما بسقف المبني، ومن موضعه انطلقت نافورة من الدماء اللزجة تلطخ المكان، وصار جسد المسخ يرتجف في شدة، وقبل أن يلتقط سلام أنفاسه اندفعت تلك الكائنات البشعة تحيط به من كلِّ اتجاه، وقد انطلقت كُرات نارية من أفواهها لتحيل المكان إلى جحيم، وقبل أن يتحرك سلام الذي أمسكت يده اليسرى بيد زوجته واليمني بسيفه الذي رفعه لأعلى هاوياً به نحو رأس الكائن المواجه له، وهو يتحاشى النيران التي كانت تواصل اقترابها منه، وصارت تحاصره، والعرق ينهمر في غزارة على وجهه، وأميرة التي كان جسدها يرتجف في عنف وهي تشير نحو شيء على يمينه، وهو ما جعله يلتفت يمينا في سرعة، وما أن وقع بصره على رأس المسخ الذي بدأ ينبت له جسد جديد حتى أصابته رعشة شديدة كاد يسقط فيها سيفه من يده، فما كان يراه مرعبا، أيُّ كائنٍ هذا الذي يأبى الموت؟ لا بد من التحرك بسرعة، وقفز سلام لأعلى في قوة وهو يمسك سيفه بيديه، وتراجع الكائن المواجه له، والذي ظن أن سلام يستهدفه، لكن الأخير وجد عقله يتذكر مشهد صراع جده مع والد هذا المسخ، وسقط سلام بجوار المسخ الذي كان يستعد للنهوض، وقد غرس سيفه حتي غمده في رأسه بعد أن أدرك أن هذه هي الطريقة الوحيدة للقضاء على خصمه الذي أخذ جسده يرتجف في عنف وقوة، وأدرك سلام معني ذلك فجذب أميرة وهو يعدو مبتعداً عن المكان ..

وانفجر جسد المسخ ورأسه في عنف ..

واختفت الكائنات البشعة، وبدأ المبنى في الانهيار، وسلام وأميرة يعدوان خارجه، وبدأت المياه في الانحسار، ووقف سلام بعد أن اطمأن إلى نجاته وزوجته التي ضمَّها إليه في حنانٍ، وقد دفنت رأسها في صدره ودموعها تنساب مبللة ملابسه، فربت على ظهرها برفق قائلا: لقد نجونا يا حبيبتي، اطمئني لقد زال الخطر .

قالها وهو يوقن أن الخطر مازال قائماً، وأن مصير جده ينتظره، وقبل أن يبدأ المسير نحو المنطقة الشمالية مع زوجته شعر بكرة شفافة تحيط بهما، وانطلقت الأبخرة حول الكرة التي تموجت بألوان الطيف، وقبل أن يختفي سلام عن المكان رأى انفجارا هائلا اهتزت له الكرة في عنف سقط معه جسده وجسد زوجته التي فقدت الوعي، وداخله أدرك سلام أن المسخ الثعباني كان يعد العدة لكلِّ شيء؛ فقد ترك قنبلة شديدة الانفجار كانت متصلة به بطريقة ما، وكان قد أعدها للانفجار فور مصرعه، ومن حوله أظلمت الدنيا، وسقط سلام فاقد الوعي.

****

شعر الفرسان الذين يقودهم حسان وجميلة بأنهم كانوا في ثبات عميق، أفاقوا منه للتوِ ليجدوا أنفسهم وسط صحراء قاحلة، وقد يبست الأشجار على الجانبين في تلك المنطقة التي أتوا إليها،

كما كان هناك بئر جفَّ ماؤها، كان الجميع يحدقون في المكان في ذهول، وكأنهم يرونه لأول مرة، وصاحت جميلة في فزع، وهي تتذكر حلما غريبا عن فقدها لوالدها ووالدتها: أين والدي يا عماه؟

وقبل أن يجيبها حسان

- أنا هنا يا حبيبتي .

أتاها صوت والدها سلام الذي كانت تحتضن كفه كف والدتها، فاندفعت جميلة تحتضنه في حنان، قبل أن تلقي نفسها بين أحضان والدتها وهي تقول: أين نحن يا أبي؟ وكيف جئنا الي هنا؟

ابتسم، وهو يقول لها: نحن في رحلة صيد يا حبيبتي، هل نسيتي أننا دائما ما نبحث عن أماكن جديدة، وأرضٍ بكر لنمارس هوايتنا الأثيرة التي ورثناها عن الأجداد وأجداد الأجداد الصيد والقنص؟

كانت تشعر بعدم الاقتناع..

كان جوابه غير مقنع ..

كانت تنظر حولها، وقد بدت الحيرة على وجهها، وهو ما دفع سلام لسؤالها: ما بكِ يا بنيتي؟ مالي أري الحيرة والحزن يطلان من عينيكِ؟

قالها وهو يمتطي صهوة جواده، وقد تبعه باقي الفرسان الذين كانوا يشعرون بالدهشة والحيرة، وبأن هناك شيئاً لا يستطيعون تذكره، وأن هناك بقعة مظلمة داخل عقولهم، وانطلقت

الجياد يتقدمها سلام وعلى يمينه زوجته وعلى اليسار ابنته التي قالت في تردد: لقد كان حُلما غريباً يا والدي .

نظر سلام إليها، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة حاول أن يزيح بها التوتر والقلق الذي يعتريها وهو يقول: أيُّ حلمٍ يا صغيرتي؟

قالت: رأيتُ أننا ذهبنا لعالم آخرَ، عالم عجيب ... عمالقة، ومبان شاهقة و..

قاطعها قائلا: أيُّ عالمٍ يا بنيتي ؟ إنه مجرد حلم .

قالها وهم يواصلون تقدمهم نحو أرضهم، والجياد تنهب الأرض في سرعة، وعقله يتذكر كلَّ ما مرَّ به من أحداث، وكيف أصابت القنبلة التي تركها خلفه ذلك المسخ الثعباني، والتي انفجرت في عنف الأرض الثالثة وارض التوران بالشلل، وكيف راحت كل الأجهزة تعمل بشكلٍ جنوني بعد ان أصابها الانفجار بخلل كبير، وكيف وجد نفسه مع فرسانه، وزوجته، وابنته وسط صحراء عالمهم الذي كان يشتاق إليه، كما أدرك أن الخطر مازال قائماً، وأن هناك أرضا أخرى كُتِبَ عليه ارتيادُها .. أرضاً بطلُها الرعبُ .

تمت بحمد الله وتوفيقه

عصام أمين

تركيب الأرض الداخلي علي النحو التالي :

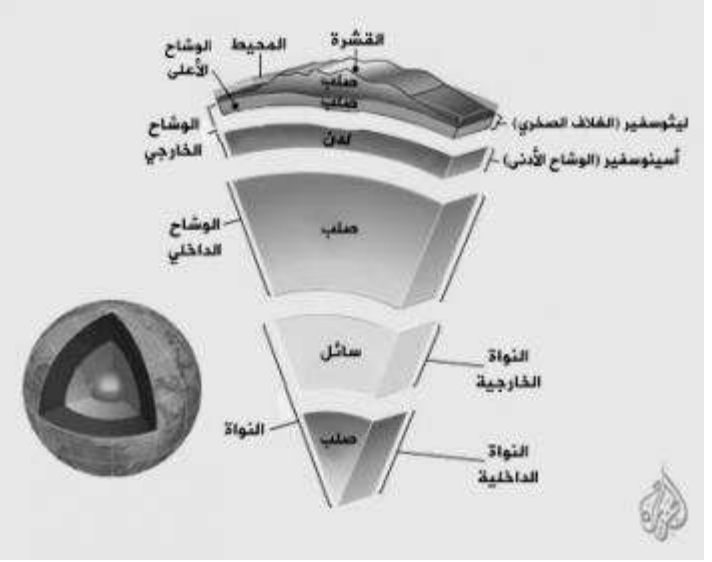

لب الأرض الصلب وهو عبارة عن نواة صلبة من الحديد (٩٠%) والنيكل (٩ %) مع قليل من العناصر الخفيفة من مثل الكربون ، والفوسفور ، والكبريت ، والسيلكون ، والأكسيجين (١%) ، وهو تركيب قريب من تركيب النيازك الحديدية مع زيادة واضحة في نسبة الحديد ، ويبلغ قطر هذه النواة حاليا حوالي (٢٤٠٢) كيلومتراً.

وتقدر كثافتها بحوالي ١٠الى ١٣,٥ جرام للسنتيمتر المكعب وذلك لأن متوسط كثافة صخور القشرة الأرضية هو ٢,٧ إلى ٣ جرام للسنتيمتر المكعب ومتوسط كثافة الأرض ككل هو ٥,٥ جرام للسنتيمتر المكعب نطاق لب الأرض السائل-الخارجي وهو نطاق سائل تقريباً ، يحيط باللب الصلب ، وله نفس تركيبة الكيميائي تقريباً ولكنه في حالة انصهار ، ويقدر سمكه بحوالي (٢٢٧٥) كيلومتراً ، ويفصله عن اللب الصلب منطقة انتقالية شبه منصهرة يبلغ سمكها (٤٥٠) كيلومترا تعتبر الجزء الأسفل من هذا النطاق الذي يمثل الأرض السادسة . ويكون كل من اللب الصلب والسائل حوالي ٣١% من كتلة الأرض.

النطاق الأسفل من وشاح الأرض-الوشاح السفلي

وهو نطاق صلب يحيط بلب الأرض السائل ، ويبلغ سمكه حوالي (٢٢١٥) كيلومتراً (من عمق ٦٧٠ كم إلي عمق ٢٨٨٥ كم) ويفصله عن الوشاح الأوسط (الذي يعلوه) مستوي انقطاع للموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل ، ويعتبر هذا النطاق الأرض الخامسة.

النطاق الأوسط من وشاح الأرض-الوشاح الأوسط

وهو نطاق صلب يبلغ سمكه حوالي (٢٧٠) كيلومترا ويحدث من أعلى وأسفل مستويان من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية يقع أحدهما علي عمق (٦٧٠) كيلومتراً (ويفصله عن الوشاح الأسفل)، ويقع الآخر علي عمق (٤٠٠) كيلومترا تحت سطح الأرض ، ويفصله عن الوشاح الأعلى ، ويمثل هذا النطاق الأرض الرابعة .

النطاق الأعلى من وشاح الأرض-الوشاح العلوي

وهو نطاق لدن ، شبه منصهر عالي الكثافة واللزوجة ، تبلغ نسبة الانصهار فيه حوالي (١%) ولذلك فإنه يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي ، ويمتد بين عمق (٦٥ إلى ١٢٠) كيلومترا ، وعمق (٤٠٠) كيلومترا تحت سطح الأرض ، ولذلك يتراوح سمكه بين (٣٣٥) و (٣٨٠) كيلومترا ، ويعتبر هذا النطاق الأرض الثالثة.

النطاق السفلي من الغلاف الصخري للأرض

ويتراوح سمكه بين (٤٠) ، (٦٠) كيلومترا وبين أعماق (٦٠ إلى ٨٠ كيلومتراً) و (١٢٠) كيلومترا تحت سطح الأرض ،ويحده من أسفل الحد العلوي لنطاق الضعف الأرضي ،ومن أعلي خط انقطاع الموجات الاهتزازية المعروفة باسم (الموهو) ، ويمثل هذا النطاق الأرض الثانية

النطاق العلوي من الغلاف الصخري للأرض-قشرة الأرض

ويتراوح سمكه بين (٥ ، ٨) كيلو مترات تحت قيعان البحر والمحيطات وبين (٦٠ ، ٨٠) كيلومترا في المتوسط تحت القارات، ويتكون غالباً من الصخور الجرانيتية المغطاة بسمك رقيق من التتابعات الرسوبية والتربة ، ويغلب علي تركيبها العناصر الخفيفة في كتل القارات ، والصخور القاعدية وفوق القاعدية وبعض الرسوبيات في قيعان البحار والمحيطات ، وتعتبر قشرة الأرض هي الأرض الأولى .. والله أعلم

الكاتب في سطور

عصام عبد المنعم أمين، ولد بمحافظة قنا مركز قوص، حصل على بكالوريوس التجارة شعبة محاسبة عام ٢٠٠٠، يعمل بمحافظة جنوب سيناء ..

أعمال للكاتب

١. رواية جسد ليس للبيع (رواية اجتماعية)
٢. مجرد عاهرة رواية
٣. حد الحرمان رواية

سلاسل الشباب:

*** سلسلة قاهر الرعب وصدر منها:**

١. في حضرة مصاصي الدماء
٢. حكايات مرعبة لا تنتهي
٣. العالم السفلي
٤. اللعنة

سلسلة مغامر عبر العصور وصدر منها:

١. صراع المماليك
٢. السر الأخير
٣. مدينة الموت
٤. المعركة

طبع للكاتب ديوان (بلا عنوان) فصحي، وديوان (قمر رحال) عامية.

البريد الالكتروني : esa_ami2000@yahoo.com